

معركة بدر الكبرى

دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش



معركة بدر الكبرى

المهاجرون والأنصار أمةٌ واحدة

عِنْدما أَمَرَ اللهُ رسولَهُ في مكَّةَ بأَنْ يَجْهَر بالدعْوةِ إلى الدِّينِ الجديدِ، وذلكَ بعْدَ السَّنةِ الثالثةِ مِن البعثةِ النَّبويّةِ، كان على المسْلمينَ أَنْ يُعانُوا مِن قُريشٍ أَلْوانَ المِحْنَةِ والعذابِ، طَوالَ عشْرٍ من السنين، لم يَدَعِ المُشرِكونَ في مكَّةَ خلالَها لوناً مِن أَلوانِ الأَذى للدعوةِ وصاحِبِهَا ومُعْتَنِقيها لم يَلْجأوا إليه، لِيَفْتِنُوا المسلمينَ عَن دِيْنِهِم، و يردُّوْهُم إلى عِبادةِ الأَوْثانِ، وقد عَمَدُوا إلى سياسةِ الإِرْهاب وَالمُقَاطعةِ والتَّجْوِيعِ، وهدّدُوا مُحمَّداً (ص) وأَهلَهُ

وأَعْمَامَهُ، وَوَثَبَتْ كُلُّ قبيلةٍ على مَنْ فيها مِن المسلمين تُعذِّبُهم فما ضَعُفوا ولا لانوا، وفرَّ كثيرٌ منهم بدينِهِ إلى الحبشة المسيحيةِ: إلى كَنَفِ مَلكٍ لا يُظْلَمُ عندَهُ أَحَدٌ، وخاب سعيُ المُشركينَ في مُلاحقتِهم واسْتردادِهم. وعَمَدتْ قُرَيشٌ إلى سياسةِ الإغراءِ والتَّرْغيبِ، فعرضتْ على محمدٍ (ص) المُلكَ والمالَ وكُلَّ ما يُثيرُ طمعَ النَّاسِ، فازْدادَ تمسُّكاً بدعوتِهِ، وَيَئِسُوا مِن صَرْفِهِ عنها بالرّشوة، ورأَوا دعوتَهُ تَزْدادُ انْتِشاراً، في مكَّةَ وخارجَها، بين القبائلِ العربيةِ الأُخرى التي كان محمدٌ (ص) يتَّصِلُ بوفودِها القادِمَةِ إلى مكَّةَ لِلتِّجارةِ أو للحجِّ، فَيَجِدُ لديها إصْغاءً لِدعوتِهِ إلى عِبادةِ الله، الإلهِ الواحدِ الذي لا شريكَ له، فراحتْ قُرَيشٌ تحاربُ الدينَ الجديدَ وصاحِبَهُ بألوانِ الافتراء والمهاترات، لِتصدَّ القبائلَ

الأُخْرى عَن الدَّعوةِ، وسِحْرِ صاحِبِهَا الذي يُفرِّقُ بين المرءِ وأَبيه، وبين المرءِ وزوجِهِ، ويَبُثُّ الفرقةَ والتخاذلَ والتناحرَ، ويَقْضي على العَصبيَّةِ ويُمزِّقُ رباطَها، ويُهدِّدُ وحدةَ القبيلةِ ويُفرِّقُ شملَها !!.

وانتهى المشركون في مكَّةَ إلى التآمرِ على حياةِ محمدٍ (ص)، ليضعوا باغْتيالِهِ نهايةَ لِدعوتِهِ، وعندَ ذلكَ لم يَجد النبيُّ بُدّاً من مغادرةِ مكَّةَ، واللجوءِ بدينِهِ وأَصحابِهِ إلى يَثْرِبَ، وكانتْ هِجرتُهُ إلى المدينةِ بدايةَ تاريخٍ جديدٍ للإنسانيَّةِ كُلِّهَا.

وَاسْتقبلَ الأَنْصارُ المسلمونَ في المدينةِ إخوانَهُمُ المُهاجرينَ بالحبِّ والفرحةِ الغامِرَةِ، وفتحوا لهم قلوبَهُم وبُيوتَهُم، ولم يَعدُّوهم «لاجئينَ» إلى أَمَدٍ محدودٍ، وقد تآخى كُلُّ واحدٍ مِن المهاجرينَ مع واحدٍ مِن الأَنصارِ إخَاءً جَعَلَ له الرسولُ حُكم إخاءِ

الدَّمِ والنَّسَبِ، وبهذهِ المُؤاخاةِ غَدَتْ وَحْدَةُ المسلمينَ مُنْطَلَقاً لِبناءِ المجتمعِ الإسْلاميِّ الأَوَّلِ على أسسٍ وَطِيْدَةٍ، لا تُزعزعُها محاولاتُ المنافقينَ لِلوَقيْعَةِ بينَ الأَوسِ والخزرجِ من مسلمي يَثْربَ، أو بينَ المهاجرينَ والأنصارِ بعامَّةٍ، فالمسلمونَ جميعاً أصبحوا مُنْذُ اليومِ «أمَّةً واحدةً» مِن دونِ الناسِ، كما جاء في كتابِ النبي إلى المهاجرين والأنصارِ الذي وادَعَ فيه يهودَ يَثْرِبَ وحالَفَهُم، وكَفِلَ فيه حُرِيَّةَ العقيدةِ والرأيِ، وحرمةَ المدينةِ وحرمةَ المالِ، وقرَّرَ تحريمَ الجريمةِ، وأعطى لليهودِ المحالفين حقَّهُم في انتصارِ المسلمين لهم على الظَّالمينَ، وفي مُسَاواتِهم في المُعَاملةِ بِهِم، ويُعدُّ هذا الكتابُ وثيقةً سياسيَّةً تُقرِّرُ دستورَ الحياةِ المدنيَّةِ للمجتمعِ الإسلاميِّ الجديدِ، والدولةِ الإسلاميةِ التي تكْفُلُ لمواطنيها

الحريَّةَ والأَمْنَ والعدالةَ والكرامةَ، وتضمنُ لَهُمُ المساواةَ في الحقوقِ والواجباتِ، وتحمِيهم مِن الظُّلمِ والاستبدادِ.

وهكذا أتيحَ لِيَثْرِبَ أَنْ تشهدَ قِيامَ أولِ دولةٍ اسلاميةٍ على الأَرضِ فيها، وإنْشاء المؤسساتِ التنظيميَّةِ الجديدةِ التي وَضَعَ النبيُّ (ص) فيها حجر الأَساسِ للحضارةِ الإسلاميةِ، وسكن المسلمون إلى دينِهم، وجعلوا يُؤدونَ فرائضَهُ بطُمَأْنِيْنَةٍ، لا يخافونَ اضطهاداً ولا يخشونَ فِتْنةً، وَانْطلقَ صوتُ بِلالٍ بالأَذانِ للصَّلاةِ، في مَواقِيْتِهَا، مِن مَسْجِدِ الرَّسولِ (ص) الذي أسهمَ النبيُّ والمسلمون معه في بنائِهِ، وأقاموا مِنْ حولِهِ مساكنَ للرسولِ (ص)، وأَصبحتْ يثربُ (مدينةَ الرسولِ) وقويَتْ شوكةُ الإسلامِ فيها، وقد بَثَّ النبيُّ في أَصحابِهِ روحَ التضحِيَةِ والإيثارِ

والتواضعِ والتحابِّ، حتّى غَدا المسلمونَ في المدينةِ في تآخِيْهِم وتراحُمِهِم وتَسامِيْهِم كَالبُنْيَانِ المَرْصُوصِ، يَشُدُّ بعضُهُ بعضاً.

غيرَ أَنَّ ازديادَ قوةِ الإسلامِ، بِإِقبالِ الناسِ عليه، ونجاحِ مُؤَسِّسِهِ في تَثْبِيْتِ دَعَائِمِهِ وإنشاءِ مُؤَسساتِهِ، كُلُّ ذلكَ بدأَ يُثيرُ مخاوفَ اليهودِ، فهؤلاءِ قد حالفوا محمداً (ص) أولَ الأَمرِ وفي ظنِّهِم أَنَّهُم سوف يتمكَّنونَ مِن ضمِّهِ إلى صُفوفِهِم، وأَنْ يستفيدوا مِن الأَمنِ الذي وطّدَ دعائمَهُ في يَثْرِبَ، لِيَزِيْدوا تجارتَهُم سَعَةً وثرواتِهِم أرباحاً، ولكنَّ الدينَ الجديدَ بدأَ يَغْزُوهُم، ويَفْشُو في عامتِهِم وبعضِ أَحْبارِهِم وعُلمائِهِم، وقد تبيَّنَ لهم أَنَّ في الحريَّةِ التي كَفَلَهَا محمدٌ (ص) للعقيدةِ والرأيِ خَطَراً يُهَدِّدُهُم، فهذا واحدٌ مِن كِبَارِ أَحْبَارِهِم، ويَعُدُّونَهُ سيِّدَهُم

وابنَ سيّدِهِم، يَشْرَحُ اللهُ صدرَهُ للدينِ الجديدِ، فَيُسْلِمُ و يُسْلِمُ معه أَهل بيتِهِ، و يسألُ النبيُّ (ص) اليهودَ قَبْلَ أَنْ يُذاعَ النبأ فيهم:

ــ ما تقولون في عبدِ الله بن سَلام؟

وأجابوا، ولا يَعْرِفُ أحدٌ مِنهُم إسْلامَهُ:

ــ نقولُ خيراً، فهو سيِّدُنا وابنُ سيِّدِنا، وحَبْرُنا وعالِمُنَا! وخرج عبدُ اللهِ إليهم لِيُعْلِنَ إسلامَهُ، و يدعوَهُم إلى الدينِ الجديدِ، وحينذاكَ أَدْرَكُوا خَطَرَ (التعايشِ السلميِّ) مع المسلمين في يَثْرِبَ، وَأَجْمَعُوْا أَمْرَهُم على الكَيْدِ لمحمدِ (ص) ودعوتِهِ، وانْضَمَّ إليهم المنافقونَ مِن المُتَظَاهِرينَ بالإسلامِ، مِن الأَوْسِ والخزرجِ، ولم يَكْتَفُوا بِمُجَادَلةِ النبيِّ في أَسْئِلَتِهِم عن أَخْبارِ السابقين مِن الأنبياءِ والمُرْسَلِيْنَ، حتّى راحوا يُحَاوِلونَ الوقيعةَ بينَ الأوسِ والخزرجِ، وَإثارةَ الفُرْقَةِ

والتَّخاصُمِ والتَّفَاخُرِ بينَ فرعي الأنصارِ، ليرتَدُّوْا إلى أحقادِ الجاهِلِيَّةِ، بعد أَنْ أَلَّفَ الإسلامُ بين قلوبِهِم، وجعلَهُم إخواناً مُتَحابِّينَ؛ كما حاولَ اليهودُ إثارةَ الفِتْنَةِ بينَ المهاجرينَ والأَنصارِ. ولكنَّ النبيُّ لم يَكُنْ لِيَغْفَلَ عَن مُؤامراتِهِم ودسائِسِهِم، فكان يَقْضِي عليها قَبْلَ أَنْ تَسْتَفْحِلَ، و يَعِظُ المسلمينَ بكلماتٍ مِن القلبِ، تجعلُهُم يبكونَ أمرَّ البُكاءِ، و يُقْبلُ بعضُهُم على بعضٍ مُتَعانِقِينَ، وكُلُّهم يستغفِرونَ اللهَ.

لن يتمكَّنَ اليهودُ ـــإذاً مِن تمزِيقِ وَحْدَةِ المسلمينَ في المدينةِ، فالمهاجرونَ المكيُّوْن مِن قُرَيش إليها، والأَنصارُ من الأَوْسِ والخَزْرَجِ جميعاً هُم «أمَّةٌ واحدةٌ» رَبَطَ الإسلامُ بينهم بِرِباطٍ وَثِيْقٍ، وَأَلَّفَ الإِيمانُ بين قلوبِهِم، فَهُمُ اليومَ طَلِيْعَةٌ صَغيرةٌ، لِأَحداثٍ كثيرةٍ، تتمخَّضُ عِن مُسْتَقْبَلٍ مَجِيدٍ لأُمَّةٍ وَاحِدَةٍ كبيرةٍ.

إِحْكامُ الحِصَارِ الاقتصاديِّ على مكَّةَ

لم ينقطِعِ المُهَاجِرونَ المكيُّونَ إلى يَثْرِبَ عن التَّفْكِيرِ في مَكَّةَ وما خَلَّفُوا وراءهُم فيها مِن أَهْلٍ وَأَمْوالٍ ومَتاعٍ وتِجارةٍ، فَهُم قد تَخَلَّوا عن أَمْوالِهِم وما يملِكُونَ عند هجرتِهِم، لِيتعجَّلُوا الرَّحِيْلَ، قَبْلَ أَنْ يتمكّنَ المشركونَ مِنْ صدِّهِم عَن الهِجْرَةِ، وتخلّى بعضُ الصَّحابةِ ـــ شأنَ صُهيْبٍ الروميِّ ـــ عَن مَالِهِ في مَكَّةَ لِقُرَيْشٍ لِيَدَعُوهُ يُهاجر إلى المدينةِ، ولِذلكَ دَخَلَ المهاجِرونَ المدينةَ وَهُم فُقَراءُ، لِيَسْتَقْبِلُوْا فيها حياةً جَدِيْدَةً، جَهِدَ الأَنْصارُ كُلَّ جهدٍ لِيَجْعلوها حياةً سَعيدةً بما غَمرُوْا بِهِ إِخْوانَهُم المهاجرين مِن

كَرَم ٍ وَرِعايةٍ وَحُسْنِ استقبال وضِيافَةٍ، وقاسَمُوهُم أموالَهُم وما يَمْلِكُونَ، في إيثارٍ لم تَشْهَدْ مثلَهُ الدنيا مِن قَبْلُ، وَمِثْلُ ذلكَ جديرٌ بأَنْ يجعلَ المهاجرينَ سُعَداءَ هانئينَ، لولا أَنَّ يَثْرِبَ حينَ دخلوها كانتْ مَوْبُوءةً بالحُمَّى، فأصابَهُم منها عَنَتٌ شديدٌ، حتى أَرْهَقَهُمُ المرضُ وَاسْتبدَّ بِهِم الضَّعْفُ، فكانوا يُصلُّونَ قُعوداً، وقد أنهكَتِ الحُمَّى قُوَاهُم، وزادتْ في وَطْأَةِ حَنِيْنِهِم إلى مكَّةَ، وقد كان حنينُهم إلى وطَنِهِم يَسْتَأْثِرُ بأفكارهم، لولا أَنَّ النبيَّ علَّمَهُم أَنَّ وطنَ المُسْلِمِ ليس هو البلدَ الذي وُلِدَ ونشأَ فيهِ، ولكنَّهُ البلدُ الذي يَسْتَطيعُ المسلمُ فيه أَنْ يَنْصَحَ لِدِينِهِ، ويُعلي فيه كلمَةَ رَبِّهِ.

على أَنَّ مُحَمَّداً (ص) نفسَهُ لم تشغَلْهُ يثربُ ومهمتُهُ العظيمةُ في تَوْطِيدِ دعائِمِ الدَّولةِ الإسلاميَّةِ

الأولى فيها عن التفكيرِ في مَكَّةَ وقُرَيْشٍ، ومستقبلِ العَلاقاتِ بين المسلمينَ ومُشرِكي قريشٍ في مَكَّةَ، وقد أَصْبَحَ المسلمون مُنْذُ السَّنَةِ الثانيةِ للهِجْرَةِ يَتَّخِذُونَ مِن الكَعْبَةِ في مكّةَ قِبْلَةً لهم في صلواتِهِم، بعدَ أَنْ كانوا يَتَّجِهُونَ فيها إلى بيتِ المَقْدِسِ، مِمّا زادَ في حنينِ المهاجرينَ إلى مكّةَ وتفكيرِهِم فيما خَلَّفُوْهُ فيها، بعد أَنْ عانَوا من أَلوانِ الاضطهادِ والأَذَى ما دَفَعَهُم مُضطرِّيْنَ إلى الجَلاءِ عنها.

واليومَ وقد قامتْ للمُسْلِمينَ دَوْلَةٌ في المدينةِ، كَيْفَ يكون موقفُهَا مِن مشركي مكّةَ وكيف تكون عَلاقاتُهَا بِهِم؟.

إنَّ الإسلامَ لا يُقرُّ الضعفَ والاستِسْلامَ والاسْتِكانةَ، وهو يُوجِبُ الدفاعَ عَن النفْسِ والكَرَامَةِ والعقيدةِ والوطنِ، ومكةُ موطنُ المُهَاجِرِينَ، وفيها

بيت اللهِ الحرامُ، وعلى المسلمين فَرِيضةٌ أَنْ يَحُجّوا إليه، وفي مكةَ مُشرِكو قريشٍ الذين صَبَرَ المسلمونَ على أَذَاهُم واضطهادِهِم فيها ثَلاثَ عَشْرةَ سَنَةً، وقد حانَ الوقتُ لِتُدرِكَ قُرَيْشٌ أَنَّ المسلمينَ غدوا قُوَّةً لا يُسْتَهانُ بها، وأَنَّ مِن الخيرِ لها أَنْ تحسبَ لَهُم حِسَاباً، وَأَنْ تَتَفَاهَمَ معهم، تَفَاهُمَاً يَكْفُلُ لِلمسلمينَ حُرِيَّةَ دينِهِم والدَّعوةِ إليه، وحريةَ الدُّخولِ إلى مكَّةَ لِتَأْدِيَةِ فرائضِ حجِّهِم!

مِن الخيرِ لِقُرِيشٍ ومَصَالِحِهَا التجاريَّةِ والماليَّةِ أَنْ تَتَفاهَمَ مع المسلمين، وقد أصبحَ في إِمْكانِهِم اليومَ أَنْ يُهَدِّدوا سلامةَ قوافِلِهَا التجاريَّةِ الغادِيَةِ إلى الشامِ، أو العائدةِ منها، والمسلمونَ اليومَ بِمَوقِعِهِم مِن طُرُقِ القوافلِ القريبةِ مِن يَثْرِبَ، يَسْتَطِيعُونَ أَنْ يَضرِبُوا على مكَّةَ (حصاراً اقتصادياً) من جِهةِ

الشَّمالِ، يَقْضِي على تِجارتِها مع الشامِ، وهي تجارةٌ مُزْدَهِرَةٌ واسِعَةُ النطاقِ، حتّى إنَّ القافِلَةَ الواحدةَ منها لَتَسِيْرُ في أَلْفِ بَعِيْرٍ أو ألفينِ، وحمولَتُها تزيدُ أَحياناً على خَمْسِيْنَ ألفَ دينارٍ!

وهكذا كان، فبعدَ سِتَّةِ أَشْهرٍ مِن اسْتِقرارِ المسلمينَ في المدينةِ بَدَأَ النبيُّ يُوْفِدُ بعضَ السَّرايا لِتَخْوِيفِ قوافلِ قُريشٍ، وكان أوّلَ لِواءٍ عقدَهُ لِعمِّهِ حمزةَ بنِ عبدِ المُطّلبِ، في شهر رَمَضانَ على رأسِ سبعةِ أَشْهرٍ مِن هِجرتِهِ، ولم يكُنْ في هذه السَّرِيَّةِ غيرُ ثلاثين مِن المهاجرينَ، ليس فيهم أحدٌ من الأَنصارِ، وقد اعترَضَ حَمْزَةُ لِقافلةٍ قُرشيَّةٍ راجِعةٍ من الشَّامِ في طريقِها إلى مكَّةَ، وعليها أبو جَهْلٍ عمرُو ابنُ هِشامٍ في ثلاثمائةِ راكبٍ مِن أهلِ مكَّةَ، واصْطفَّ الفريقانِ لِلقِتالِ، لولا أَنْ حَجَزَ بينهما مجديُّ

بنُ عمروٍ الجُهني، وكان حَليفاً لِلْفريقين جميعاً، فتابع أبو جَهْلٍ وقافلتُهُ الطريقَ إلى مكّةَ، وعادَ حمزةُ إلى المدينةِ، ولمْ يقع قِتالٌ، وبلغَ المُسلمونَ ما أرادوا مِن بَثِّ الخَوْفِ في نُفوسِ المشركين في مكّةَ على قوافلِهِمُ التجاريَّةِ.

وبعدَ شهرٍ من السريَّةِ الأولى عَقَدَ النبيُّ (ص) اللواءَ لِابْنِ عمِّهِ عُبيدةَ بن الحارثِ عبدِ المطلبِ، على سريّةٍ فيها سِتُّونَ أو ثمانونَ مِن المهاجرين أيضاً، لِتَعْترضَ لقَافِلةٍ تجارِيَّةٍ أخْرى لِقُريشٍ، وعليها أبو سفيانَ بنُ حَرْبٍ أو عِكْرِمةُ بنُ أَبي جَهْلٍ، في مائتينِ مِن المشركين، ولمْ يقعْ بين الفريقين قِتالٌ بالسيوفِ، ولم يصطفُّوا لِلقتالِ، واقْتَصَرَ الصدامُ على مُناوشاتٍ رمى سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ خلالَها المشركين بِسَهْمٍ، فكان أوّل سَهْمٍ رُميَ في الإسلامِ.

وبعدَ شَهْرٍ من السريةِ الثانيةِ أَرْسَلَ النبيُّ (ص) سريةً ثالثةً على رأسِهَا سعدُ بنُ أبي وقّاص، في عشرينَ مِن المُهَاجرينَ، ولكنَّ القافلةَ التي خرجَتِ السريةُ لِتَعتَرِضَ لها تمكَّنتْ مِن الإفْلاتِ!

هذه السرايا الثلاثُ لمْ يقعْ فيها قِتالٌ، إذْ لمْ يكنْ القَصْدُ منها ذاكَ، وكان النبيُّ (ص) يرمي مِن وَرائِهَا إلى إثارةِ خوفِ قرَيْشٍ على قوافِلِهَا التجاريَّةِ، فتحسب لِقُوَّةِ المهاجرينَ حِسَاباً، يجعلُهَا تُخَفِّفُ مِن صَلَفِهَا، ويدفعُهَا إلى التفاهُمِ مع المسلمين، فلمّا لمْ تُؤدِّ تلك السرايا مهمتَهَا، رأى النبيُّ (ص) أَنْ يَعْمَدَ إلى مُحَالَفةِ القبائلِ المُقيمةِ على طريقِ القوافلِ التجاريَّةِ، لِيُشَدِّدَ الحصارَ على تِجارةِ قُرَيْشٍ، ويمنعَ عنها عونَ تِلكَ القبائلِ، ويدفعَ قُرَيْشاً بذلك كُلِّهِ إلى الاعتدادِ بقُوّةِ المُهَاجرينَ، والسعيِ إلى التفاهُمِ

والاتفاقِ معهم، وهكذا نَجِدُ النبيَّ (ص) يخرجُ بنفسِهِ على رأسِ السنةِ الأولى مِن هِجْرتِهِ في غزواتٍ متتاليةٍ، لِيَعترِضَ لِعيرِ قُرَيْشٍ (غزوةِ الأبواءِ ـ غزوةِ بُواطٍ ـ غزوةِ العشيرة) وفيها كلِّها لا يقعُ قِتالٌ، وإِنَّما يَتِمُّ فيها بعضُ المُحَالفاتِ: فَفِي غزوةِ الأَبواءِ حالَفَ النبيُّ (ص) بني ضَمْرَةَ ـ وسيِّدُهم يومَذاكَ فَخْشِيُّ بنُ عمروٍ الضَّمْري ـ على «أَلاَّ يغزوَهُم ولا يَغزُوْهُ، ولا يُكَثِّرُوْا عليه جَمْعاً، ولا يُعينوا عدوًّا» وكتب بينهُ وبينهُم كِتاباً؛ وفي غزوةِ العُشَيْرَةِ حالفَ النبيُّ بني مُدْلِجٍ أيضاً، وهذه المحالفاتُ غايتُها توطيدُ قُوَّةِ المسلمين في المدينةِ أوَّلاً، وتوهينُ قدرةِ قُرَيْشٍ على حِمَايةِ قوافِلِهَا التجاريَّةِ ثانياً إذ لن تَجِدَ في القبائلِ المحالفةِ لِلمدينةِ عَوْناً لها على مُحَمَّدٍ (ص) وأَصحابِهِ إذا ما اعترضوا لِغيرِهَا، وهي تمرُّ في طريقها بأراضيهم.

ويرى بعضُ الباحثينَ غايةً أخْرى وراءَ إرسالِ السَّرايا الإسلاميةِ لِتخويفِ قوافلِ قُرَيْشٍ، وعقدِ المحالفاتِ مع القبائلِ المقيمةِ على طرقِهَا. وهي إرهابُ اليهودِ المقيمينَ في يَثْرِبَ وما حولَهَا، وقد رأيناهم يتآمرونَ ويدسُّونَ لِيُثِيْرُوْا الفِتْنَةَ بَيْنَ المسلمينَ ويبثّوا الفُرقةَ بينهم، فلا بُدَّ ـ إذاً ـ من إشعارِهِم بأَنَّ للمسلمين من القُوّةِ ما يُمكنّهم من إخمادِ نارِ كُلِّ فتنةِ والقضاءِ على مُثيرِها، ولهذا كانتْ مهمةُ تِلكَ السَّرايا القيامَ بالمُناوشاتِ الحربيةِ الخاطِفةِ، دونَ أَنْ تتعرّضَ لِهَزِيْمَةٍ تُطمعُ قُرَيْشاً واليهودَ في المسلمينَ، وتُظْهرهُمْ في مَظْهَرِ المُعْتَدِين، والإسلامُ يُنكر الحربَ العُدوانية (ولا تَعْتَدُوا إنَّ اللهَ لا يُحبُّ المُعتدين).

ومهما يكنْ فقد بلغَ المسلمونَ في حصارِهِم

الاقتصاديِّ للمشركين في مكَّةَ مرحلةً جديدةً لنْ يتمكنوا خلالَهَا مِن تَجَنّبِ القِتالِ كما سنرى.

تشريع الجهاد
دفاعاً عن النفس والعقيدة

في شهرِ رَجَبٍ مِن السَّنةِ الثانيةِ لِلْهِجرةِ بعثَ النبيُّ عبدَ الله بن جَحْشٍ الأَسدِيَّ في اثنى عَشَرَ رجلاً مِن المهاجرين، ودفعَ إليهِ كتاباً مختوماً، وأَمَرَهُ ألاَّ يَنْظُرَ فيه إلاَّ بعدَ يومينِ مِن مسيرِهِ نحو مكَّةَ، فيمضِيْ حِينذَاكَ لِما أمرهُ بِهِ، ولا يستكْرِهَ أحداً مِن أصحابِهِ! وانْطَلَقتْ سَرِّيةُ عبدِ الله بنِ جحشٍ، فسارَتْ يومينِ ثُمَّ فتحَ عبدُ الله كتابَ النبيِّ ونَظَرَ فيهِ فإذا فيه:

«إذا نَظَرْتَ في كتابي هذا فَامْضِ حتّى تنزلَ نَخْلَةَ ــ بين مكَّةَ والطائِفِ ــ فترصَّدْ بها قُرَيْشاً،

وتَعلَّمْ لنا مِن أخبارِهِم» فَلمّا قرأَهُ قالَ: سَمْعاً وَطاعَةً! وقال لِأَصحابِهِ:

ــ قد أمرني رسولُ اللهِ صلّى اللهُ عليه وسلّم أَنْ أَمْضِيَ إلى نخلةَ، أَرصُدُ بها قُرَيْشاً، حتى آتيَهُ مِنْهُم بِخَبرٍ، وقد نَهانِي أَنْ أَسْتكْرِهَ أحداً منكم، فَمَنْ كانَ يُريدُ الشهادةَ و يرغَبُ فيها فَلْيَنْطَلِقْ، ومَنْ كرِهَ ذلكَ فَلْيَرْجِعْ، فَأَمّا أَنا فإِنِّي ماضٍ لِأمرِ رَسُولِ اللهِ!

ومَضى عبدُ اللهِ، ومَضَتِ السَّريَّةُ معَهُ، خلا اثنينِ مِن الرِّجالِ، هما سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ وعُتْبَةُ بنُ غَزْوانَ، وكانا قد أَضلاّ بعيرَهُما، فَانْطَلَقا يَطلُبانِهِ، فَأَسَرَتْهُما قُرَيْشٌ.

وسارَ عبدُ اللهَ ومَنْ مَعَهُ حتى نَزَلُوا نخلةَ، وهناكَ مرّتْ بِهِم قافِلَةٌ لِقُرَيْشٍ، عليها عمرُو بنُ الحَضْرميِّ،

وهي تحملُ تِجارةً مِن الطَّائِفِ إلى مكَّةَ، وكان يومُئذٍ آخرَ شهرِ رجبٍ!

وَاجْتمعَ رِجالُ السَّرِيَّةِ يَتَبَادلُونَ الرأْيَ، فَذَكَرُوْا ما صنعتْ قُرَيْشٌ بِهِم، وما حَجَزَتْ مِنْ أَموالِهِم، وحارُوا في أَمْرِهِم، فقالَ أحدُهُم:

ــ لَئِنْ تركتُم القافِلةَ هذه الليلةَ فلن تَرْجِعُوا بِطائِلٍ، وَسَتَدْخلُ الحَرَمَ فَتَمْتَنِعُ بِهِ منكم!

وقالَ آخرُ:

ــ ولكنَّكُم إِذا قَتَلْتُمُوْهُم فإِنّكم تَقْتُلُوْنَهُم في الشَّهرِ الحرامِ! وتردّد الرِّجالُ، وحَارُوْا في أمرِهِم، وهابُوا الإِقْدامَ، ثُمَّ شجَّعُوا أَنْفُسَهُم وَأَجْمَعُوْا على قَتْلِ مَنْ قَدَرُوْا عليهِ مِنْ رجالِ القافِلةِ وأَخْذِ ما مَعَهُم، وَرَمَىٰ وَاقِدُ بنُ عبدِ اللهِ التيميُّ عمروَ بنَ الحَضْرَمِيِّ بِسَهْمٍ فَقَتَلَهُ، وَأَسَرَ المسلمون رَجُلينِ، وَرَجَعَتِ

السَّريَّةُ بالقافِلةِ والأَسيرَيْنِ إلى المدينةِ، فَلمّا رآها النبيُّ قالَ لِرجالِهَا:

ــ ما أَمَرْتُكُم بقتالٍ في الشَّهرِ الحرامِ!

وَسُقِطَ في يَدِ عبدِ اللهِ بنِ جحشٍ وأصحابِهِ، وَعَنَّفَهُم إِخْوانُهُم مِنَ المسلمينَ فيما صَنَعُوْا، وَانْتَهَزَ المشركونَ الفُرصَةَ لِلتشنِيْعِ على مُحَمَّدٍ (ص) وأصحابِهِ!

وقالتْ قُرَيْشٌ: أَنَّ محمداً وأصحابَهُ قد اسْتَحلُّوْا الشَّهرَ الحرامَ، وسفكوا فيه الدَّمَ، وأخذُوْا فيهِ الأَموالَ، وأَسَرُوْا فيهِ الرجالَ! وَأَرْسَلَ اليهودُ أَلْسِنَتَهُم بالأَذَىٰ، يتوقَّعُونَ الشَّرَّ بِالمسلمينَ، وَ يُحاولونَ إِشْعالَ نارِ الفِتْنَةِ، وعندَ ذلكَ نزلَ قولُهُ تعالى: (يَسْأَلُوْنَكَ عَنِ الشَّهرِ الْحَرَامِ: قِتَالٍ فيهِ؟ قُلْ: قِتَالٌ فيهِ كَبِيْرٌ، وَصَدٌّ عَنْ سَبيْلِ اللهِ وَكُفْرٌ بِهِ والمَسْجِدِ الحَرَامِ

وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِ مِنْهُ أَكْبَرُ عِنْدَ اللهِ، والفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ القَتلِ، وَلا يَزَالُوْنَ يُقَاتِلُونَكُمْ حَتى يَرُدُّوْكُم عَنْ دِينِكُمْ إِنِ اسْتَطَاعُوْا).

وسُرِّيَ بِذلكَ عَنِ المسلمينَ، فَهُمْ إِنْ قَتَلُوْا المُشْرِكينَ في الشَّهرِ الحرامِ، فإنَّ المشركينَ صَدُّوا المسلمين عَنْ سبيلِ اللهِ مَعَ الكُفرِ بِهِ، وهَجَّرُوْهُمْ مِنْ دِيارِهِمْ، وَصَدُّوْهُم عَنِ المسجدِ الحرامِ، وَإِنَّ إِخْراجَ المسلمينَ مِنهُ، وَهُمْ أَهلُهُ، أَكبرُ عندَ اللهِ مِنْ قتلِ مَنْ قَتَلُوْا مِن المشركين، وقد كان هؤلاءِ يَفْتِنُوْنَ المسلمينَ عَنْ دِيْنِهِم، حتّى يردُّوْهُم إلى الكفرِ بعدَ الإيمانِ، فهذه الفِتْنَةُ أكبرُ عندَ اللهِ من القَتْلِ، والمشركون دائِبُوْنَ في قِتالِ المسلمين حتّى يردُّوْهُم إلى الوَثَنِيّةِ إِنِ اسْتَطاعُوا، وَالقِتالُ في الشَّهرِ الحرامِ أَمْرٌ كبيرٌ، ولكنَّ فِتنةَ الرَّجلِ عَنْ دِينِهِ

بِالإغْراءِ وَالتَّرْغِيبِ، أو بِالتَّعْذِيبِ وَالتَّرْهِيبِ، كبيرةٌ مِنْ أكبرِ الكَبائِرِ، وهِيَ أكبرُ مِن القَتْلِ في الشَّهرِ الحرامِ وفي غيرِ الشّهرِ الحرامِ!

وهكذا أجازَ الإسلامُ لِأَتباعِهِ أَنْ يُدافِعُوا بالقُوّةِ المسلَّحَةِ عَنْ عَقِيْدَتِهم إذا حاولَ المشرِكونَ أَنْ يَصدُّوْهُم بِالقُوّةِ المُسَلَّحةِ عنها، أو أَنْ يَمْنَعُوهُم مِنْ حُرِيَّةِ الدعوةِ إلى اللهِ ودينِهِ، وهكذا كان ما قامَتْ بِهِ سَرِيَّةُ عبدِ اللهِ بنِ جحِشٍ مُنْطَلَقاً لمرحَلَةٍ جديدةٍ في تاريخِ الدَّعوةِ الإسلامِيَّةِ:

مَرْحَلةٍ شُرِعَ فيها قِتالُ الذين يَفْتِنُوْنَ المسلمينَ عَنْ دينِهِم، ويصدُّونَ عَنْ سبيلِ اللهِ.

مَرْحلةٍ وَجَبَ على المسلمينَ فيها الجِهَادُ في سَبيلِ اللهِ، دِفَاعَاً عَنِ النَّفْسِ وَالعَقِيدةِ وَحُرِّيَّةِ الدَّعوةِ إليها.

لمْ يبقَ أَمامَ المسلمين مَجالٌ لِمُصانَعَةِ قُرَيْشٍ أو التفاهمِ والاتفاقِ لِلتعايشِ السلمِيِّ معها. وعليهم بعد أَنْ فُتِحَ أمامَهُم بابُ الجِهادِ على مِصْرَاعَيْهِ أَنْ يَسْتَخْلِصُوا مِنْ قُرَيْشٍ أموالَ المهاجرين المحْجُوْزَةَ في مكَّةَ، وأَنْ يَسْتَرِدُّوْها بِكُلِّ وَسَيلةٍ مَشْرُوْعةٍ، وقد غدا الغَزْوُ والقِتالُ وسيلَتَيْنِ مَشْرُوْعَتَيْنِ لاسْتِخْلاصِ الحَقِّ مِنْ مُشْرِكي مكّةَ، إنْ لمْ تَنْفَعْ معهم الوسائِلُ الأُخْرى.

هذه هي ـ إذاً ـ الأَسبابُ البعيدةُ وغيرُ المُبَاشرةِ التي أَدَّتْ إلى نُشُوْبِ المعركةِ الحاسِمَةِ بينَ المسلمين والمشركين في بَدْرٍ.

فما هي الأسبابُ القريبةُ والمُبَاشرةُ لِنُشُوْبِها؟

تصدّي المسلمين لقافلة أبي سُفيان

بَعْدَ أَنْ شُرِعَ الجِهادُ لِقِتالِ الذين يَفْتِنُوْنَ المسلمين عن دِينِهم ويصُدُّوْنَ عَنْ سبيلِ اللهِ. انفَسَحَ المَجَالُ أَمامَ النبيِّ (ص) لِمُناجَزةِ قُرَيْشٍ في كلِّ مَيْدانٍ. مِنْ مُداهَمَةِ القوافِلِ التِّجارِيَّةِ وفَرْضِ الحصارِ الاقتصادِيِّ إلى خَوْضِ غِمارِ الحربِ المُسَلَّحَةِ، فَفِي أوائلِ رَمَضانَ مِنَ السَّنَةِ الثانيةِ لِلْهجرةِ، كان النبيُّ (ص) يَترَقَّبُ عودةَ القافِلةِ التجارِيَّةِ الكبيرةِ مِن الشّامِ، وعلى رأسِهَا أبو سفيانَ بنُ حَرْبٍ، وفيها أَمْوالٌ عَظيمةٌ لِقُرَيْشٍ، وتِجارةٌ لها مِمّا تحمِلُهُ القافلةُ مِن بلاد الشَّامِ، وقد

قُوِّمَ ما فيها بخمسِيْنَ أَلْفاً مِن الدَّنانيرِ، وهيَ القافلةُ التجاريّةُ التي أرادَ النبيُّ (ص) اعتراضها عندَ العُشَيْرَةِ وهيَ في طرِيقهَا إلى الشّام قَبْلَ شَهْرِينَ، ولكنَّها فاتَتْهُ، وقد حُقَّ لَهُ الآنَ أَنْ يَحْرِصَ ألاَّ تفوتَهُ في عودتِهَا، ولهذا نراهُ يَبْعَثُ طَلْحَةَ بنَ عُبيدِ الله ِوسعيدَ بنَ زَيْدٍ يَسْتطِلِعَانِ خَبَرَهَا، ولكنَّهُ لا ينتظرُ أَوْبةَ مبعوثَيْهِ، فقد خَشِيَ إنْ هو انتظَرَهُمَا أَنْ تفوتَهُ القافِلةُ العائدةُ، كما فاتَتْهُ في ذهابِهَا إلى الشَّامِ، ولذلك نَدَبَ المسلمين إلى الخروجِ إليها وقال لهم:

ــ يا معشرَ المهاجرين والأَنْصارِ، هذه عِيرُ قُرَيْش فيها أموالهم فاخرجوا إليها، لعلَّ اللهَ يُنْفِلُكُمُوْهَا (أي يجعلها نفلاً وغنيمةً لكم).

وجاء النَدْبُ إلى الخروجِ بَغْتَةً، والنبيُّ كما

رأينا يتعجَّلُ السيرَ لِئَلاّ تفوتَهُ القافِلةُ، وسَأَلَ كثيرٌ مِن الأَوْسِ أَنْ يَسْتأنِيَ النبيُّ (ص) بهم قليلاً، لِأَنَّ منازِلِهَمْ كانتْ في عوالي المدينةِ (ضواحيها)، ليذهبوا إليها، و يُحْضِرُوْا ركابَهُمْ منها لِتَحْمِلَهُم وأَثقَالَهُم، فَأَبىٰ ذلكَ عليهم، حِرْصَاً على الوقتِ أَنْ يَضِيعَ، وَاقْتَصَرَ على دعوةِ مَنْ كانَ رِكابُهُ حاضِرةً مِن المسلمين وقال:

ـ لا يَتْبعنا إلاّ مَنْ كان ظهرُهُ (ما يركبه) حاضِراً!

فَالنَّفِيرُ إلى الخروجِ لمْ يكُنْ عَامّاً، والمسلمون لم يكونوا يَنْتَظِرُونَ خَوْضَ مَعْركةٍ مَعَ المشرِكين، وَهُمْ يَحْسبُوْنَ أَنَّ خُرُوْجَهُم لِاعْتِراضِ القافلةِ التجاريّةِ لا يُكَلِّفُهُم حَرْباً تَتَطلَّبُ أهْبَةً وَكَبِيرَ اسْتِعْدَاد، والرِّجالُ المُرَافِقُونَ للقافِلةِ قليلٌ عددُهُم،

فَهُم ثلاثونَ أو أَرْبعونَ، أو هم قُرابَةُ السبعينَ على أكثرِ تقديرٍ، فلا حاجَةَ إذاً إلى نَدْبِ المُقاتلين مِن المسلمين جميعاً لِلخُروجِ إليهم، ولهذا أَسْرَعَ بعضُ المسلمينَ، وَثقُلَ بَعْضٌ عَنِ الخُروجِ، وَتَجمّعَ الجيشُ الإسلاميُّ على مَسافَةِ مِيْلٍ مِن المدينةِ، حَيْثُ أقِيمَ المُعَسْكَرُ، وَعَرَضَ النبيُّ (ص) أصحابَهُ، فَرَدَّ مَنِ اسْتَصْغَرَ مِنْهُم، وَأَجازَ فَتًى في السّادِسَةَ عَشرَةَ مِنْ عُمُرِهِ، وهو عُمَيْرُ بنُ أبي وقّاصٍ، لأَنَّهُ حينَ استصغر سِنَّهُ وَأَرادَ أَنْ يردَّهُ بَكَى بينَ يدَيْهِ رَغْبَةً في الخروجِ، وَانْطَلقَ الجيشُ، وكان جُمْلَةُ مَنْ خَرَجَ فيه مِن المهاجرينَ والأَنْصارِ يَزيدونَ قَلِيلاً على ثلاثمائةِ رجلٍ، وليس معهم ما يركبون غَيْرَ فَرَسَيْنِ وسبعينَ بَعِيراً، فكان الثلاثةُ أو الأَرْبعةُ يَتَناوَبُونَ البَعِيرَ الوَاحِدَ.

غادرَ الجيشُ الإسلاميُّ المدِينةَ لِثَمانٍ خَلَوْنَ مِنْ رَمَضانَ، مِن السنةِ الثانيةِ للهجرةِ، وقدّمَ النبيُّ (ص) أمامَهُ رَجلينِ يَسْتَطْلِعَانِ لَهُ خَبَرَ القافِلةِ، وهما بَسْبَسُ بنُ عمروٍ، وعديُّ بنُ أبي الزَّغْباءِ، وهما من جُهَيْنَةَ، حَليفانِ للأَنْصارِ، حتّى انْتَهيَا إلى ماءِ بَدْرٍ لِيَسْتَقِيَا، وعَلِمَا مِن جارِيَتَيْنِ على الماءِ أَنَّ القافِلةِ تَصِلُ غَداً أَوْ بعدَ غَدٍ، فَارتَدّا إلى النبيِّ (ص)، وَأَخْبَراهُ بما عَلِمَا.

أَمّا أبو سفيانَ فقد بَلَغَهُ مُنْذ كانَ في الشّامِ أَنَّ المسلمينَ تعقَّبوا قافلتَهُ في الذهابِ فَفَاتَتهُمْ، وَأَنَّهُم يَتَرَقَّبُوْنَ عودتَهَا، و يرصُدُوْنَ انصرافَهَا، فَلَزِمَ أبو سفيانَ الحَذَرَ، ولمَّا دَنَا مِن الحِجَازِ مع القافِلةِ العائِدَةِ، راحَ يَتحسَّسُ الأَخْبارَ، فَعَلِمَ بِخُروجِ المسلمينَ لِلإعْتِراضِ لِقافلتِهِ، فَازْدَادَ حَذَراً، وَخَشِيَ أَنَّ

أَنْ تَقَعَ القافِلةُ في يَدِ محمدٍ (ص) وأَصحابِهِ، وليس في حِرَاسَتِهَا مِن الرجالِ ما يكفي لِلدّفاعِ عَنْهَا، فَاسْتَأْجَرَ رَجُلاً مِن بني غفارٍ، بَعَثَ بِهِ مُسْرِعَاً إلى مكّةَ، لِيَسْتَنْفِرَ قُرَيْشاً إلى حِمايةِ أَمْوَالِهَا في القَافلةِ، ويُخبرَها أَنَّ محمداً (ص) قد عَرَضَ لها في أصحابِهِ، وأسرَعَ رسولُ أبي سفيانَ: ضَمْضَمُ بنُ عَمْروٍ الغفاريُّ يَطْوِي المراحلَ على بعيرِهِ، حتّى وصل إلى مكّةَ، فَقَطَعَ أذني بعيرِهِ، وجَدَعَ أنفَهُ، وجعلَ يصيحُ في النّاسِ بعدَ أَنْ شَقَّ قميصَهُ.

ــ يا معشرَ قُرَيْشٍ، يا معشر قُرَيْشٍ، اللَّطيمة اللطيمة (أي: المالَ والتجارةَ) أموالُكم مع أبي سُفيانَ قد عرضَ لها محمدٌ (ص) في أصحابِهِ، ولا أظنُّ أنكم تُدركونها! الغوثَ الغوثَ! يا معشرَ قُرَيْشٍ!

وَمَاجَ النّاسُ في مكّةَ وهاجُوا، وراحَ أبو جَهْلٍ يَسْتنفِرُ قُرَيْشاً، ويطُوفُ في أَحْيائِهَا، وقد كانَ لِكُلٍّ مِنْ رجالِهَا في القافلةِ نَصِيبٌ، وتجَمَّعَ المَلأُ مِنْ قُرَيْشٍ (وهُمْ أشرافُ قُرَيْشٍ) يَتَدارَسُونَ الموقفَ على عَجَلٍ، وقال بعضُهُمْ غاضِباً:

ــ أيظنُّ محمدٌ وأصحابُهُ أَنْ تكونَ قافلةُ أبي سفيانَ مثلَ قافلةِ ابنِ الحَضْرَميِّ (الذي قتلتْهُ سريّةُ عبدِ اللهِ بنِ جحشٍ) لِيَعْتَرِضَ لها ويستوليَ عليها، كلاَّ وَاللهِ لَيَرَيَنَّ غيرَ ذلك!

وتجهّزَ النّاسُ سِراعاً لِلْخروجِ، ولمْ يتخلَّفْ مِنْ أَشرافِ قُرَيْشٍ أَحدٌ، وَمَنْ تَخَلّفَ مِنْهُم ــ مثل أَبي لَهَبٍ ــ بَعَثَ مكانَهُ رَجُلاً، وَمَنْ تَلَكَّأَ منهم في الخروجِ وتردَّدَ ــ مثل أميةَ بنِ خَلَفٍ وكان شيخاً جسيماً ثقيلاً ــ تهكَّمُوْا بِهِ واسْتَثَارُوْهُ حتّى خَرَجَ

معهم، ولمْ يبقَ بمكّةَ مُتخلّفٌ قادِرٌ على القِتالِ، وَاصْطَحَبُوْا معهم القيانَ والدُّفوفَ، وغَادَرُوْا مكّةَ في جيشٍ يَزِيدُ على الألْفِ مِن الرِّجالِ.

وبَلَغَ الخبرُ محمداً (ص) بخُروجِ قُرَيْشٍ لِتمنعَ عِيرَهَا، وَوَجَدَ المسلمون أَنْفُسَهُم أمامَ مَوْقِفٍ جديدٍ: فهذه مكّةُ كلُّها قد خرجتْ لِلدفاعِ عَنْ تجارتِهَا وأموالِهَا، والمسلمونَ الذينَ خرجُوا لِلقَافِلةِ لَمْ يأخذُوْا أهْبتَهُم واستعدادَهم لِلقاءِ قُرَيْشٍ كُلِّها. فما يصنعون؟.

الإسلامُ والشّرْكُ في الطريق إلى المعركة

في الموقفِ الجديدِ تغيَّر وجهُ الأَمْرِ أمامَ المسلمينَ: ذلك أَنَّهُمْ خرجوا على غيرِ أهبةٍ واستعدادٍ، وفي تقدِيرِهِم أَنَّهُم سيُلاقون قافلةَ أبي سفيانَ، ورجالُها قِلَّةٌ لا يَمْلِكُوْنَ مُقَاوَمَةَ محمدٍ (ص) وأَصْحَابِهِ، فَيَسْتَوْلونَ عليها في غَيْرِ جُهْدٍ، وقد تَفُوْتُهُم القَافِلَةُ العَائدةُ، مثلَ فوتِها لَهُمْ قَبْلَ شهرين، ولهذا تَعَجَّلَ النبيُّ (ص) خُرُوْجَهُم، أَمَلاً في التَّصَدي لِلقَافِلةِ قبلَ أَنْ تفوتهم، ولكِنَّهُم الآنَ، وقد خرجتْ قُرَيْشٌ بِجُمُوْعِهَا لِتَمْنَعَ عِيرَهَا،

أصبحوا يواجهون موقفاً حرِجاً مُغايراً: فهمُ اليومَ لو أدْركُوا القَافِلةَ وتغلّبُوْا على رِجالِهَا وأَسرُوا بعضَهُم واسْتَوْلَوْا على الإبِلِ والتجارةِ، فَإنَّ قُرَيشاً، بكثرةِ عَديدِهَا وعَدَدها، وحرِصَها على استردادِ مالَهَا، سوف تُدرِكُهُم، وتُقاتلُهُم ــ وَهُمْ قلةٌ ــ مُسْتَمِيتَةً لِتُوقعَ بِهِم، وَتَسْتَعيدَ إبِلَهَا وتجارتَها.

وإذا آثَرَ المسلمونَ العودة إلى المدِينةِ مِنْ غيرِ قِتالٍ، دُونَ أَنْ يَعرِضُوا لِلقَافِلةِ أَوْ لِلجيشِ الذي هَبَّ لِحِمَايتِهَا منهم، فلسوف تطمَعُ قُرَيْشٌ بِهِم، كما يَطمعُ بِهِم اليهودُ في المدِينةِ، وَ يَزْدَادُ أَعداءُ المسلمينَ صَلَفَاً وأَذَىً، و يَخْسرُ المسلمونَ كُلَّ ما كسبوا خلالَ السنتين مِنْ هِيبَةٍ وقوةٍ!

هذا موقِفٌ حرِجٌ وصعبٌ، وعلى النبيِّ (ص) أَنْ يبسطَهُ لأصحابِهِ، و يَطْلبَ مَشورتَهُم، و يَسْتَمِعَ

إلى آرائِهِم؛ وفي وادي ذفِران، قُبيلَ بَدْرٍ، يَقِفُ التاريخُ خَاشِعاً لِيَشْهَدَ ذلكَ المجلسَ الاستشاريَّ الديموقراطي العظيمَ، وقد تجمَّعَ فيه ثلاثُمائةٍ مِنْ أَصْحابِ محمدٍ (ص)، لِيَرسُمُوا لِلإِسْلامِ مَسِيرتَهُ المُظفَّرَةَ، ويُجدّدُوا للنبيِ (ص) إيمانَهُم بِهِ وبرسالتِهِ؛ ويُعلِنُوا عَزْمَهُم على السَّيْرِ وراءَهُ حتّى الموت، ما يَتَخلَّفُ عَنْهُ رجلٌ واحدٌ منهم..

وقد أَدْلَى المهاجرونَ بآرائِهِم أولاً: فقال أبو بَكْرٍ الصديقُ وأَحْسَنَ، وقال عمرُ بنُ الخطَّابِ وأحسنَ، ثُمَّ قامَ المقدادُ بنُ عمروٍ فقالَ:

ــ يا رسولَ اللهِ امْضِ لِمَا أَراكَ اللهُ، فَنَحنُ معكَ، واللهِ لا نقولُ لَكَ كَمَا قالتْ بنو اسرائيلَ لِمُوسى: «اذهبْ أَنْتَ وَرَبُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا ها هُنَا قَاعِدُون» ولكنْ اذهبْ أَنتَ وربُّكَ فَقَاتِلا إِنَّا

معكما مُقاتِلُونَ، فوالذي بعثَكَ بِالحقِّ لو سِرْتَ بنا إلى برْكِ الغِماد ـــ موضع بأقصى اليمن ـــ لَجالَدْنا معكَ من دونِهِ حتى تبلُغَهُ!

فقال النبيُّ لِلمقدادِ خَيْراً، وَدَعا لَهُ ثم قال:
ـــ أشِيروا عليَّ أيُها النّاسُ!

وَإنَّمَا كان النبيُّ يُريدُ رأيَ الأنْصار، فهو ما يزالُ يذكرُ أنَّهُم إنَّمَا بايعُوْهُ بالعَقَبةِ على أنْ يكونَ في ذِمَّتِهِم ما دام في دِيارِهِم، فكان يَخْشَ ألاَّ يرى الأَنْصَارُ نَصْرَ إلاَّ مِمَّنْ يُداهِمُهُ في المدينةِ مِنْ أعْدائهِ، وأنَّهُ ليس عليهم أنْ يَسيرَ بِهِم مِنْ دِيارِهِم إلى أعْدائهِ، وهو اليومَ خارجَ مدينتِهِم فما يَصْنَعُونَ! وأَحَسَّ الأنصارُ أنّ النبيَّ (ص) يُريدُ رأيَهُم فقامَ سعدُ بنُ معَاذٍ، وهو صاحبُ رَايَتِهم، فقالَ:

ـ لَكأنَّكَ يا رسولَ الله ِ تُرِيدُنَا ؟

ـ أَجَل !

فقال سعدٌ: أنا أجِيبُ عَنِ الأَنْصارِ: لقد آمنَّا بِكَ وَصَدَّقناكَ، وَشَهِدْنا أَنَّ ما جِئْتَ بِهِ هو الحقُّ، وأعطيناكَ على ذلك عُهودَنا ومَوَاثِيقنا على السَّمْعِ والطَّاعَةِ، فَامْضِ يا رسولَ الله ِ لِمَا أَرَدْتَ، فنحن معكَ، فوالذي بعثَكَ بالحقِّ، لو استَعْرَضْتَ بِنا هذا البحرَ فَخُضْتَهُ لَخُضْناهُ معك، وما تخلَّفَ مِنّا رجلٌ واحدٌ، وما نَكْرَهُ أَنْ تَلْقَى بِنا عدوَّنا غداً، إِنَّا لَصَبُرٌ في الحربِ، صُدُقٌ في اللقاءِ؛ لعلَّ الله َيُريكَ مِنَّا ما تَقَرُّ بِهِ عينُكَ، فَسِرْ على بَركَةِ الله ِ.

فقال النبيُّ (ص) عند ذلك، وقد أَشْرَقَ وجهُهُ ارتِيَاحاً وسروراً وتَمَلكهُ النشاطُ:

ـ يا معشرَ المسلمين، سِيرُوْا وأَبْشِروا، فَإِنَّ

اللهِ تعالى قد وَعَدَني إِحْدَى الطَّائِفَتينِ، وَاللهِ لكأني الآنَ أنظُرُ إلى مَصَارِعِ القوم:

وهكذا أجمعَ المسلمون على القِتالِ، وارتحلُوْا نَحْوَ بَدْرٍ حتّى نَزَلُوْا قريباً مِنْه، وقد امتَلأَتْ نفوسُهُم أَمَلاً بالنَّصْرِ القريبِ: فإمّا الفوزُ بالقَافِلةِ وأموالِهَا، وإمّا النَّصْرُ على جيش المشركين القادمِ لِحِمَايَتِهَا..

ولكنَّ القافِلةَ تمكَّنَتْ مِن النجاةِ، بِمَا لأَبي سفيانَ مِنْ ذَكاءٍ وَفراسَةٍ وَحَذَر، فهو عندما وصلتِ القَافِلةُ إلى بَدْرٍ، تقدَّمَ العِيرَ بِنَفْسِهِ مِنْ شِدَّةِ حَذَرِهِ، لِيَسْتَطلعَ الأخبارَ، خَشْيَةَ أَنْ يكونَ محمدٌ (ص) قد سَبَقَهُ إلى الطريقِ، فَلَمّا وَرَدَ ماءَ بَدْرٍ عَرَفَ أَنَّ راكبَيْنِ أَنَاخَا قَبْلَ قليلٍ وَاسْتَقَيَا ثُمَّ انْطَلَقا، وتَفَقَّدَ أبو سفيانَ مُنَاخَهُمَا، فَوَجَدَ في روثِ بعيرَيْهِمَا نَوَىً عَرَفَهُ مِنْ عَلائفِ يَثْرِبَ، فَارْتَدَّ سَرِيعاً إلى

أصحابِهِ، وعَدَلَ بِالقَافِلَةِ عَن الطريقِ، وَأَخَذَ بها جِهَةَ ساحِلِ البحرِ الأَحْمَرِ، حتّى بَعُدَ مُسْرِعاً في مَسِيرِهِ، وَنَجَا بِمَا معهُ، وعندما تَأكَّدَ مِنْ إفْلاتِهِ وَنَجاةِ القَافِلَةِ أَرْسَلَ إلى قُرَيْشٍ، وَقَدْ خَرَجَتْ مِنْ مَكَّةَ، يُخْبِرُهَا بِما تَمَّ ويسأَلُهَا أَنْ تَرْجِعَ إلى مكّةَ، «وقد نجّى اللهُ عيرَها ورجالَهَا وأموالَهَا»، وكفاها بذلك مَؤُوْنَةَ القِتالِ!

وكذلكَ وجدتْ قُرَيْشٌ نفسَهَا أمامَ الموقفِ الجديدِ: فَمَا حاجَتُهَا للقتالِ بعدَ نجاةِ القَافلةِ والتجارةِ، وهذا رسولُ أبي سفيانَ يدعوها إلى الرجوعِ، وعددٌ غيرُ قليلٍ مِن القرشيينَ يَرَوْنَ رأْيَ أبي سفيان غيْرَ أَنَّ أبا جَهْلٍ صاحَ في قُرَيْشٍ:

ـــ واللهِ لا نَرجِعُ حتّى نَرِدَ بَدْراً، فَنُقيمَ عليه ثلاثاً، ننحرُ الجُزُرَ، ونطْعَمُ الطعامَ، ونُسْقَى الخمرَ،

وتَعزِفُ علينا القِيانُ، وتسمعُ بنا العربُ وبمسيرنا وجمعِنا، فلا يزالون يهابُونَنا أَبداً بعدَهَا!

وتردَّدَ القومُ بين مواصلةِ السيرِ إلى بَدْر، والرجوع إلى مكّةَ، وخشي كثيرٌ منهم إذا رجع أَنْ يُتَّهم بِالجُبْنِ، فلمْ يرجِعْ إلاّ بنو زُهْرَة، واتبعوا مَشُورةَ الأَخْنس بنِ شريقِ الثَّقَفيِّ، وكان حَلِيفاً لهم، ومُطَاعاً فيهم، فَرَجَعُوا معه، ولمْ يَشْهَدْ بَدْراً زُهْرِيٌّ واحدٌ، كما رَجَعَ مِنْ بني هاشمٍ، طالبُ بنُ أبي طالبٍ، مع مَنْ رَجَعَ، ومضى القومُ وراء أبي جَهْلٍ نحو بَدْرٍ، وكانتْ بَدْرٌ مَوْسِمَاً مِنْ مَوَاسِمِ العربِ، يجتمعُ لهم بها سُوقٌ كلَّ عامٍ، وقد أرادَ أبو جهلٍ أَنْ يُذِيعَ في العربِ إصْرارَ قُرَيْشٍ على الصمودِ لمحمدٍ (ص) ودعوتِهِ، وأَنْ تَسْتَرِدَّ قُرَيْش هيبتَهَا في القبائلِ، بعدما كان من سريّةِ عبدِ الله

بنِ جحشٍ، وقَتْلِ الحضرميِّ، واستيلاءِ المسلمين على الغنائِمِ والأَسْرَى مِنْ قُرَيْشٍ.

ولمّا بَلَغَ أبا سفيانَ الخبرُ بِمضيِّ قرَيْشٍ نحْوَ بَدْرٍ قالَ:

ــ واقوماه! هذا عملُ عمرو بنِ هشامٍ ــ يعني أبا جهلٍ ــ كَرِهَ أَنْ يرجِعَ لِأَنّهُ قد ترأسَ على النّاسِ، وَبَغَى والبغيُ مَنْقَصَةٌ وشؤمٌ!

وهكذا قَيّضَ اللهُ لِلإسلامِ والشرّكِ أَنْ يلتقيا في بَدْرٍ على غيرِ مِيْعَادٍ، في أولى معاركهما الفاصلة.

إحدى الطائفتين: العِيرُ أو النفير

عـنـدما نَزَلَ المسلمون قريباً مِنْ بَدْرٍ بثُّوا العيونَ (الجواسيس) مِنْ حولِهم لِيَسْتَطْلِعُوا أخبارَ قُرَيْشٍ والقَافِلَةِ، وقد بَلَغَ مِنِ اهْتِمَامِ النبيِّ (ص) بتلك الأَخْبارِ أَنَّهُ خَرَجَ بنفسِهِ مع أبي بكرٍ يستطلعانِ حقيقتَها، فوقفا على شيخٍ مِن العَرَبِ (سفيان الضَّمْري) وعَرَفَا منه أَنَّ جموعَ قُرَيْشٍ وَصَلتْ إلى بَدْرٍ، وَأَنَّهَا ليستْ بعيدةً عَنْ مُعَسْكَرِ المسلمين، فَرَجَعَ النبيُّ إلى أَصحابِهِ، وَأَرْسلَ مع المساءِ بعضَ الرجالِ إلى ماءِ بَدْرٍ، لِلاستطلاعِ والاسْتِكْشَافِ، وفيهم عليُّ بنُ أبي طالبٍ، والزُّبيرُ بنُ العَوامِ،

وسعدُ بنُ أبي وقّاص، وعادتْ هذه الطلِيْعَةُ ومعها غُلامانِ مِنْ سُقَاةِ قُرَيْشٍ عَرَفَ النبيُّ (ص) مِنهُمَا أَنَ قُرَيْشاً تَنْزِلُ وَراءَ الكَثيبِ في بَدْرٍ بالعُدْوَةِ القُصْوَى، فسألهما:

— كَمِ القومُ؟

— كثيرٌ!

— ما عِدَّتُهم؟

— لا ندري.

— كم ينحرون كلَّ يومٍ؟

— يوماً تسعاً، و يوماً عشراً.

فقال النبيُّ لِأَصحابِهِ: القومُ فيما بين التسعمائة والألف! ثم عاد إلى سؤال الغلامين:

— مَنْ فيهم مِنْ أَشْرافِ قُرَيْشٍ؟

— عُتْبَةُ بنُ ربعة، وشَيْبَةُ بن رَبيعة، وأبو

البَخْتَرِيِّ بنُ هشام، وحكِيمُ بنُ حِزام، ونَوفَلُ بنُ خُوَيْلدٍ، والحارثُ بنُ عامرِ بنِ نَوْفَل، وطعيمةُ بنُ عَدِيِّ بنِ نَوْفَل، والنّضرُ بنُ الحارثِ، وزَمَعةُ بنُ الأسود، وأبو جهلِ بن هشام، وأميةُ بنُ خَلَف، ونُبَيْه ومُنبه ابن الحجّاج وسُهَيْلُ بنُ عمرو، وعمرو بنُ عَبْدِ وُدّ!.

فقال النبيُّ (ص) لأصْحَابِهِ: هذه مكَّةُ قد أَلْقَتْ إليكم أَفْلاذَ كبدِهَا! وهكذا عرف المسلمون حقيقةَ الموقف: فَمُقَاتِلَةُ قُرَيْشٍ هم على مَقْربةٍ منهم، وفيهم أشرافُ مكة والملأ، وَعَدَدُ المشركين ثلاثةُ أضعافِ المسلمين، وقد نَجَتْ قَافِلةُ أبي سفيان دونَ رَيْبٍ، ولمْ يبقَ أمامَ المسلمين إلاّ أَنْ يَخُوضُوا معركةً ضارِيَةً حاميةَ الوطيسِ!

هِيَ مَعْركة غيرُ مُتوقعةٍ: فهم قد خرجوا للتصدّيْ

للقَافلةِ، وفي تقديرِهِم أَنْ يَفُوزُوا بِهَا، وَ يَرْجِعُوا دونَ حَرْبٍ سَالمينَ.

وهِيَ معركةٌ غيرُ مُتكافئة: للتفاوتِ العَدَدِيّ بين الفريقين؛ والاستعدادِ العاجلِ الهزيلِ الذي خرجوا بِهِ مِن المدينةِ، وقد خلَّفُوا فيها إخواناً لَهُمْ كثيرينَ قادرينَ على القِتالِ.

وفي سورةِ الأَنْفالِ التي يُسَمِّيْهَا ابنُ عباس (سورةَ بَدْرٍ) وهِيَ أَوْثَقُ مصادرِنا عَنْ تلك المعركةِ العظيمةِ الحاسمةِ في تاريخ الإسلامِ. في هذه السورة آياتٌ تُعيننا على تَصَوُّرِ حالِ فريقٍ من المسلمين عندما أَيْقَنُوْا أَنّ القَافِلةِ قَدْ نَجتْ، وَأَنَّ آمالَهُم في غنائمِهَا قَدْ تبخَّرتْ، وهم يَسِيرُوْنَ إلى المعركةِ على كرْهٍ مِنْهُم، وكأَنَّهُم يُساقونَ إلى الموتِ سَوْقاً مع أَنّ الله وعدَهُم النصرَ، وها هم أولاءِ قبل المعركةِ

يُجادلون النبيَّ، كي يعودوا إلى المدينةِ مِنْ غيرِ قِتالٍ.

«كَمَا أَخرَجَكَ رَبُّك مِنْ بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيْقَاً مِنَ المُؤْمِنِيْنَ لَكَارِهُونَ يُجادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَمَا تَبيَّنَ كَأَنَّمَا يسَاقُوْنَ إلى المَوْتِ وَهُمْ يَنْظُرُوْنَ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللهُ إِحْدى الطّائفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تكُونُ لَكُمْ وَ يُرِيدُ اللهُ أَنْ يُحِقَّ الحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ و يَقْطَعَ دَابِرَ الكافِرِيْنَ» (الأنفال: الآيات ٥-٧).

إنّ موقفَ هذا الفريقِ مِنَ المؤمنينَ، كما تُصوِّرُه هذه الآياتُ، يُمثّلُ ضَعْفَ الإنسانِ وخوفَهُ الفطريَّ وتَرَدُّدَهُ بيْنَ العزيمةِ واليَأسِ والإقْدام والإحْجامِ، وهو يُواجِهُ معركةً ضاريَةً غيرَ متعادِلةٍ ولا متكافئةٍ..

وهو موقفٌ يُمثّلُ حالةً مِنْ حالاتِ النفسِ

الانسانيةِ، في فترَةِ ضَعْفِهَا وانهيارِ مُقاومتِهَا، غيرَ أَنَّ هذه الفترةَ مَوْقُوتَةٌ وعَابرةٌ، ولا بُدَّ لِلإِنْسانِ بَعْدَهَا مِنْ أَنْ يَسْتَعيدَ لِنفسِهِ قوتَها وتماسُكَهَا.

ومن هنا لا نَجِدُ لموقف هذا الفريقِ مِنَ المؤمنينَ وما ظَهَرَ مِنْ ضَعْفِهِم أثراً في المعركةِ، فقد خَاضَ جميعُ مَنْ خرجوا مَعَ محمدٍ (ص) للتصدِّيْ لِلقَافِلةِ معركةَ بَدْرٍ، وكانتْ بطولاتُهُم كما سنرى مَشْهودةً ومُشرِّفَةً..

فَلْنُتابعْ ــ إذاً ــ محمداً (ص) وأصحابَهُ، وقد أَجْمَعوا أَنْ يَصمُدُوا لِقُرَيْشٍ بكثرتِهَا الكاثرةِ، وهم قلةٌ قليلةٌ، ولكنَّهُم واثِقُونَ بِوَعْدِ اللهِ لَهُم بِالنَّصْرِ المؤزَّرِ على المشركين.

لقد قال لهم النبي (ص): سيروا وأبشروا، فإنَّ اللهَ قد وعدني إحْدى الطّائفتين: العير أو النفير وقد

فاتَتْهُم العِيرُ، ونجتِ القافلةُ مع أبِي سُفيان، وَلَنْ يَفوتَهُمُ النفيرُ، والنصرُ في الحربِ لَهُم حَقٌ موعودٌ، لِيُحِقَّ اللهُ الحقَّ و يُبطلَ الباطِلَ. ولو كَرِهَ المشركونَ.

الإعداد للمعركة الفاصلة

بَعْدَ أَنْ أَجْمَعَ المسلمونَ على الصمودِ لقُرَيْشٍ إذا أَصَرَّتْ على قِتالِهم كان عليهم أَنْ يَسْتَعِدُّوا لِلِقائِهَا، و يُنظِّموا صفوفَهم لِلحربِ، حذراً مِنْ أَنْ يُباغِتَهُمُ المشركونَ فيوقعوا بهم، وقد عسكر الطَرفانِ في بَدْرٍ: فَنَزَلَتْ قُرَيْشٌ بالعُدوةِ القُصْوَى (أي في الطرف الأقصى من الوادي بالنسبة للمدينةِ) خَلْفَ كَثِيْبٍ مستدير مشرف من الرّملِ (كثيب العقنقل) تَحْتَمي بِهِ، و بينها و بين بَدْرٍ بَطْنُ الوادي (وادي يَلْيَل)، ونَزَلَ المسلمونَ بالعُدْوَةِ الدُّنيا (أي في الطرف الأدنى من الوادي بالنسبة للمدينة) وراحُوا

يُوالونَ إعدادَهُم لِلمعْرِكَةِ القَادِمَةِ بإِيمانٍ وحَماسَةٍ وحَذَرٍ.

وفي ليلةِ المعركةِ أَتَمَّ المسلمون اختيارَ المَيْدَانِ، بَعْدَ تَشَاورٍ وَدِراسةٍ، وَانْتَقَلَتْ قُوّاتُهُم إليهِ، وكانوا نزلوا أولاً عَنْدَ أَقْرَبِ ماءٍ مِنْ بَدْرٍ، فَاقْتَرَحَ الحُبابُ بنُ المنذرِ على النبيِّ (ص)، وكان عَليماً بالمكانِ والآبارِ الكثيرةِ فيه، أَنْ يَنْتَقِلُوا إلى غيرِهِ، وسأل النبيَّ:

ــ يا رسولَ اللهِ، أبِوَحْيٍ مِنَ اللهِ نَزَلْنَا هذا المكانَ فَليسَ لَنَا أَنْ نتقدَّمَهُ أَوْ أَنْ نتأخّرَ عنهُ، أَمْ ذلكَ أمرٌ مَتْرُوكٌ لِرَأْينا، وما نراه خيراً لحربِنَا، وما نَجِدُ فيه مَكِيدةً لعدونا؟ وأَجابَ النبيُّ:

ــ لا بَلْ هو الرأيُ والحربُ والمكيدةُ، وأنا في هذا كُلِّهِ بشرٌ مثلكم، فبماذا تُشيرون؟

ـ إنّ هذا ليس بِمَنْزِلٍ إذاً، فَانْهَضْ بالنّاسِ، حتى نَأْتِيَ أَدْنَى ماءٍ مِنْ قُرَيْشٍ، فَنَنْزِلَهُ، ثُمَّ نُغَوِّر ما وَرَاءَهُ مِنَ الآبارِ (أي: نَطُمُّهَا ونطمِرُهَا) ثم نبني على ذلك الماءِ حَوْضاً فَنَمْلؤهُ ماءً، ثم نُقاتل القومَ، فَنَشْرَبُ ولا يَشْرَبونَ!

ـ لقد أشرتَ بالرأيِّ، فَلْيَنْهَضِ النّاسُ!

وَانْتَقَلَ المسلمونَ إلى أَدْنَى ماءٍ مِنْ قُرَيْشٍ، ونزلوا عليهِ، ثمَّ غوّروا الآبارَ الأُخْرى، وَبَنوا الحوضَ على البِئْرِ التي نزلوا عليها، وَمَلأوهُ ماءً، وبذلك تَزَوّدوا منه بما يكفيهم، وَسَتَجِدُ قُرَيْشٌ نفسَهَا غداً مُهددةً بالْعَطَشِ، والماءُ عندَ المسلمينَ موفورٌ. وقد يَسَّرَ اللهُ على المسلمين انتقالَهُم إلى الميدانِ الذي اخْتَارُوْهُ لِلقِتالِ، فأَمْطَرَتِ السماءُ مَطَراً لَبَّدَ لَهُم الأرضَ، فَتَنَقَّلوا فوقها بخفّةٍ ويُسْرٍ، لِأَنَّ الوادي كان

دَهْسَاً (ليِّناً) فتلبَّدتْ أرضُهُ، أما المشركون فكان المطَرُ وبالاً عليهم، وقد نزلوا إلى جَانِبِ الكَثِيب الرَّمْلِيِّ، فَأَضْحَتِ الأَرْضُ مِنْ تحتِهِم مُوحِلةً، تَسُوخُ الأقدامُ فيها، فلا يَسْتَطِيْعُونَ التنقُّلَ فوقَهَا إلاّ بمشقّةٍ وعُسْرٍ! وبذلك تمكنّ المسلمونَ مِنَ التحرّكِ بخفةٍ، والسَّبْقِ إلى أَقْرَبِ مَوْطِنٍ لِلماءِ مِنْ قُرَيْشٍ، فَاحْتَلُّوْهُ قَبْلَ عدوِّهِم، ولمْ تَتَمَكّنْ قُرَيْشٌ مِنْ مُغَادَرةِ مَكانَها خَلْفَ الكَثِيْبِ، وباتَتْ ليلتَهَا إلى الصَّباحِ فيه، والمطَرُ الغزيرُ يسحُّ فوق النّاسِ، وهم مُنْهَمِكُوْنَ في إعْدادِ شِوائِهِم مِمَّا نَحَرُوْا مِنْ جُزُورٍ (من نياقهم)، على نِيْرَانٍ أَوْقَدُوْهَا في الأَخْبِيةِ، لِغزارةِ المطرِ، وقد سَهِرُوْا ليلَهُم في خوفٍ مِنَ البَيَاتِ (الهجوم الليلي المفاجىء)، وظَلُّوا يَتَحارسون إلى أَنْ أَضَاءَ الفَجْرُ، ولم يُصبْ أكثرُهُم مِنْ خوفِهِ نَوْماً، وكان المشركون

يتواصون تلك الليلةَ بِأَنْ يكونَ فتكُهُم غداً بِأصحابِ محمدٍ (ص) مِنْ أَهْلِ يَثْرِبَ مَا اسْتَطَاعُوا، دُونَ أَصْحابِهِ المُهَاجِرينَ مِنْ شَبابِ مكّةَ، فَلِهؤلاء الإبقاءُ عليهم أو الأَسْرُ، لِيَعودُوْا بِهِم إلى مكّةَ أَذِلّةً في الأَغْلالِ، حتّى يُبصروا ضَلالَهم وَسُوْءَ مَا اقْتَرَفُوْا عندما فارقوا دينَ آبائِهِم!

أما في مُعَسْكَرِ المسلمينَ، فكان أصحابُ محمدٍ (ص) يوالُوْنَ إعدادَهُم، وَ يَتَدارَسُونَ خِطّةَ القِتالِ مَعَ قائدِهم، وَ يَتَشَاوَرُوْنَ لكي يَسْتَفِيْدُوا مِنْ كُلِّ رَأْيٍ، وسأل سعدُ بنُ مُعاذٍ محمداً (ص):

ـ يا نبيَّ اللهِ، أَلاَ نبنيْ لكَ عَرِيشاً من قُضبانِ النخلِ، لتكونَ فيه وتستظلَ به، ونُعِدُّ عندك ركائبك، ثم نلقى عدوّنا، فإنْ أعزَّنَا اللهُ وأظهَرنا على عدوِّنا، كان ذلك ما أَحْبَبْنا، وإنْ كانت الأخْرى

ـ لا قدّر الله ـ أمْكَنَكَ الانسحابُ، على ركائبك، ولحقتَ بِمَنْ وَراءنـا قَوْمِنَا في المدينةِ، وقد تخلّفَ عنكَ فيها أقوامٌ ما نحن يا نبيَّ الله بأشدَّ حُباً لكَ منهم، ولو ظنُّوا أنك تلقى حرباً ما تخلّفوا عنكَ، واللهُ يمنعُك بهم، يُناصحونك ويُجاهدونَ معك، لِتُعيد الكرّةَ على المشركين!

وأَثْنَى النبيُّ على سعدٍ، وَدَعا لَهُ بِخَيرٍ، وَأَسْرَعَ المسلمونَ يبنونَ العَرِيْشَ، مَقَرّاً لِلقائدِ العامِّ. وَحِمايةً لَهُ، وتَأْمِيناً لِانْسِحَابِهِ عِنْد الضرُورةِ والتحاقِهِ بالمدينةِ، وَقَدْ فَرِحَ المسلمونَ باقْتِرَاحِ سَعْدٍ، فهم في حبِّهِم للنبيِّ (ص) وحرصِهم على حياتِهِ وَاسْتِمْرَارِ دعوتِهِ وإيمانِهِم بها، يعلمونَ أنَّهم يُوَاجِهُونَ عدواً يفوقُهُم عدداً بثلاثةِ أَمْثالِهم، ويفوقُهُم سِلاحاً، فهم قد خَرَجُوا على غَيْرِ أهبةٍ ولا تقدير

لِلحَرْبِ، ولهذا فَهُم يحسَبُونَ لِلهَزِيمةِ حِسَاباً، وَ يُخَطِّطُوْنَ أَنْ يَفْتَدُوْهُ بِأَرْوَاحِهِم، إِذا كانتِ الكَرَّةُ عليهم، والنبيُّ يُبارِكُ سَعْيَهُم، وَ يُجِيزُ اقتراحَ سعدٍ، ما دام أصحابُهُ كلُّهُم يرونَ فيه مَزِيداً مِنَ الاطْمِئْنَانِ لِأَنفسِهِم، مع أَنَّ اللهَ قد وَعَدَهُ النَّصْرَ، وَإِنَّهُ لَقَرِيبٌ.

ولَمْ يُهْمِلِ النبيُّ استطلاعَ أخبارِ عدوِّهِ طَوالَ الليلِ، فقد أَوْفَدَ اثنينِ مِنْ أَصحابِهِ، وهما عَمّارُ بنُ ياسرٍ وعبدُ اللهِ بنُ مسعودٍ، فَأَطَافَا بِقُرَيْشٍ، ثُمَّ رَجَعَا لِيُعْلِنَا أَنَّ القومَ مَذْعُوْرُونَ فَزِعُونَ، لَمْ يترك الخوفُ مِنْ مُبَاغتَةِ المسلمين لهم نوماً والسماء تسحّ عليهم مدراراً!.

وكأن المسلمين، وقد استراحوا إلى ما بذلوا من جُهد في اخْتِيَارِ مَيْدانِ اللقاءِ، والتزوّدِ بِالماءِ،

وَبِنَاءِ العَريشِ، والتشاورِ في خُطَّةِ القِتالِ، واطمأنوا إلى جُمْلَةِ مَا اتَّخذُوْا مِنِ احْتياطٍ وَإِعدادٍ لمعركةِ الصّباحِ، أَدْرَكَهُمُ النعاسُ، فَاسْتَسْلموا لِنوم عَمِيقٍ مُرِيحٍ لِأَجْسادِهِم وَأَعْصابِهِم، بَعْدَ طُوْلِ إِنْهاكٍ لها وإجهادٍ، وكان نومَهُم هذا نعمةً كبيرةً مِنَ اللهِ عليهم، لكَي يستيقظوا مع الفَجْرِ على هِمّةٍ ونشاطٍ، لِمُلاقاةِ عدوِّهِم في المعركةِ الفاصلةِ.

المسلمون في انتظار الزحف

اسْتَيقَظَ المسلمون عِنْدَ الفجْرِ مِنْ يوم ِ الجمعةِ في السابعَ مِنْ رَمَضانَ، مِنَ السنةِ الثانيةِ لِلهجرةِ لِيَسْتَقْبلوا أكبرَ حدث ٍ في تارِيخِهِم حتّى اليوم، فَتَوَضَّأوا بِهمّةٍ ونشاط ٍ وأَدُّوا صلاةَ الفجرِ في صُفُوفٍ مُتَراصةٍ، وَأَفْطَرُوا لِأَنَّهُم لِمْ يكونوا لِيَصُومُوا وهُم على سَفَرٍ، ثُمَّ راحَ النبيُّ (ص) يُعَبِّىءُ صفوفَ جيشِهِ و ينظّمُها، وَ يُقِيمُهَا في مواضِعهَا مِنَ المَيْدانِ، ولمْ يكنْ في الجيشِ الإسلاميِّ في بَدْرٍ غيرَ فارسَيْنِ، فالمقاتِلَةُ جميعاً مِنَ المُشاةِ، وَأَسْلِحَتُهُمُ السيوفُ والرماحُ والنِّبالُ، وفيهم عددٌ مِنَ الرُّمَاةِ

المذكورين: فقد كان صهيبٌ من أرْمَى الرِّجالِ، وكان عُتبةُ بنُ غزْوانَ، وحاطِبُ بنُ أبي بَلْتَعَةَ وسعدُ بنُ أبي وقّاصٍ، والمقدادُ بنُ عمروٍ، والسائبُ بنُ عثمانَ بنِ مَظْعونٍ، وعبدُ الله بنُ جُبَيْرِ بنِ النعمان الأوسيِّ، وأوسُ بنُ خَوَلِي، وأبو طلحةَ زيدُ بنُ سَهْلٍ، كان هؤلاء من الرماة المذكورين مِنْ أَصْحَابِ محمدٍ (ص). وعقد النبيُّ ثلاثةَ أَلْوِيَةٍ لِلجيشِ: وكان لواءُ المهاجرين هو اللواءُ الأعظمُ، وكان لواءً أبْيضَ، دَفَعَهُ إلى مُصْعَبِ بنِ عُميرٍ، ودفع لواءَ الخزرجِ إلى الحُبابِ بنِ المُنْذِرِ، وكان سعدُ بنُ مُعاذٍ على حَرَسِ النبيِّ، وقد دفع إليه لواءَ الأَوْسِ، وكان سعدٌ يُلازمُ بابَ العَرِيشِ، عندما يَدْخُلُهُ النبيُّ (ص) ومعه أبو بكرٍ الصديق، فلا يُغادر سعدٌ مكانَهُ، وهو متوشِّحٌ بالسَّيفِ مَعَ

نَفَرٍ مِنْ أَصْحابِ النبيِّ لِلحِراسَةِ، وقد نظّم النبيُّ أصحابَهُ: ميمنة وميسرةً، والروايات تختلف فيمن استعمل على كل منهما، وَأَفْرَد النبيُّ في مُؤَخّرةِ الجيشِ سَاقَةً، واستعمل عليها قيسَ بنَ أبي صَعْصَعَةَ، وأذاعَ في المسلمين شعارَ المعركةِ لِيَتَعارفوا بها في القِتالِ، وَعِنْدَ اختلاطِ الفريقينِ، وَهِيَ «أَحَدٌ أَحَدٌ» ويُقالُ إِنّهُ جعلَ لِكُلِّ جماعةٍ في بَدْرٍ شِعَاراً، فشِعَارُ المهاجرين: «يا بني عبدِ الرحمن» وشِعَارُ الخزرجِ: «يا بني عبدِ اللهِ» وشِعَارُ الأَوْسِ: «يا بني عُبيدِ اللهِ»؛ ويُقال بل كان شعارُ المسلمين جميعاً يَوْمَئِذٍ: «يا مَنْصُوْرُ أَمِتْ!».

وكان بين صَحابةِ النبيُّ عددٌ من المُعْلَمِينَ عِنْدَ الزَّحْفِ، على عَادَةِ أَبْطالِ العَرَبِ، لِيَقْصِدهُم مَنْ يُريدهُم مِنَ المحاربين، وفي مُقَدّمَةِ المُعْلِمِيْنَ

مِنَ المسلمين عَنْ أَنْفسِهِم في بَدْرٍ: حمزةُ بنُ عبدِ المُطَّلِبِ، وكان مُعْلِماً بريشةِ نعامةٍ في صدره، وعليٌّ بن أبي طالب، وكان مُعْلِماً بصوفة بيضاء، والزُبير بن العوام، وكان مُعْلِماً بعِصابة صفراء، وأبو دُجَانَة الأنصاري، وكان مُعْلِماً بعِصابةٍ حمراء يُسميها (عصابة الموتِ).

وَخَفَقَتْ أَلْوِيةُ المسلمين في بَدْرٍ: كُلُّ لِواءٍ في الموضِع الذي وَضَعَهُ الرسولُ (ص) فيه، وَصَفَّ مِنْ خَلْفِ الراياتِ الصفوفَ، وَاحْتَاطَ لِلشَّمْسِ، فَجَعَلَ الصفوفَ تَسْتقبلُ المَغْرِبَ، وجعل الشمسَ خلفَهَا، وترك للمشركين أَنْ يستقبلوا الشمسَ، وهكذا كان النبيُّ (ص) في قيادتِهِ الحربيةِ ذلك اليوم مِثالاً رائِعاً لِلقائدِ العظيمِ في إعدَادِ جيشِهِ لِلمعْركةِ وَالنَّصْرِ، في تنظيمٍ مُحكمٍ، وتخطيطٍ واعٍ،

وكان يَطوفُ بنفسِهِ بين الصفُوفِ المُتَراصَّةِ، لِيُعدِّلَها، وفي يَدِهِ سهْمٌ يُشيرُ به إلى كلِّ مُتقدِّمٍ في الصفِ، ليستويَ مع غيره، ومرّ بسوادِ بن غزيّة، وكانَ خارجاً من الصفّ، فطعَنَ في بَطْنِهِ بِالسّهْمِ وقال له:

ــ استَوِ يا سوادُ! استوِ يا سوادُ مع الصف!

فتظاهر سوادٌ بالتوجّع مِن طعنِة السهمِ وقال:

ــ يا رسولَ اللهِ، أَوْجعتَني، وقد بعثكَ اللهُ بالحقِّ والعدلِ، فأَقِدْني! (أي فاقتصَّ لي من نفسِك!).

فكشف النبيُّ (ص) عن بَطنِهِ وقال:

ــ استقدْ يا سوادُ (واقتصَّ مني بما أَوجعتُكَ)!

فَأَهَوى سوادٌ على النبيِّ وَاعْتَنَقَهُ، وَقَبَّلَ بطنَهُ، فقال النبي (ص):

ـــ ما حَمَلَكَ على هذا يا سوادُ؟

ـــ يا رسولُ اللهِ، حَضَرَ ما ترىٰ، وَأَتَمَنَّى أَنْ يَرْزُقَنَي اللهُ الشهادةَ في يومي، وقد أردتُ أن يكونَ آخرُ العهدِ بكَ أن يَمَسَّ جلدي جلدَكَ!

ودعا النبيُّ لِسوادٍ بخيرٍ، وهلّل الصحابةُ وكبّروا، وعند ذلك رأى المسلمون طَلائعَ جيشِ المشركين، وهي تَنْحَدِرُ مِن خلْفِ الكثيبِ نحوَ الوادي، بِخُيَلاءٍ وكِبْرياءٍ وَاعْتِزازٍ بِالكثْرَةِ، ثم راحتْ تقطعُ الواديَ زاحِفَةً نحو بَدْرٍ، ومِنْ خلْفِها جموعُ قُرَيْشٍ.

قريش تراجع موقفها قبل الهجوم

أَقْبَلَتْ قُرَيْشٌ بجموعِهَا لِتأخذَ مواقعَهَا في القِتالِ، ورسولُ الله يصفُّ أَصْحابَهُ و يُعدِّلُهم، وكان في مقدِّمةِ الجموعِ القُرشيَّةِ الزَّاحفةِ زمعةُ بنُ الأسودِ الأسديِّ على فرسٍ له يتبعُهُ ابنُهُ، فتجوَّلَ بفرسِهِ لِيختارَ لِقُرَيْشٍ منازلَ القِتالِ، ولم يكنْ أمامَ قُرَيْشٍ أَنْ تختارَ، فقد سَبَقَ المسلمون إلى المَيْدانِ، وَاتَّخَذُوا فيه مواقعَهُم مُنْذُ الفجرِ. وتركوا لِقُرَيْشٍ أَنْ تتخذَ منازلَهَا في مُواجهةِ المسلمين، فَتَوالتْ جموعُهـا تقطعُ الواديَ، وكان النبيُّ (ص) يرى تدفُّقَهَا، وخُيلاءهَا وكِبرَها، فَيَتَضَرَّعُ إلى ربهِ وَيَستغيثُ به: «اللهمَ هذه قُرَيْشٌ قد أقبلت

بِخُيَلائها وفخرِها، تُحادُّك ـ أي تُعاديكَ ـ وتُكذِّبُ رسولَك، اللهم أَحِنْهُم ـ أيْ أهْلِكْهُم ـ الغداةَ!».

وكان عددُ المشركين يُناهزُ الألفَ، وفيهم مائةٌ من الفَرسان على خيولهم وسبعمائة بعير من الإبل وكان معهم ثلاثةُ ألْويةٍ: لِواءٌ مع أبي عزيز بنِ عُميرٍ، ولواءٌ مع النضر بنِ الحارثِ، ولواءٌ مع طلحة بنِ أبي طلحة،

وحملةُ

الألويةِ كلُّهم مِن بني عبدِ الدارِ.

وتختلفُ الرواياتُ في تسميةِ مَنْ كان على مَيْمَنةِ قُرَيْشٍ وَمَنْ كان على مَيْسَرَتِهَا يومَ بَدْرٍ، أَمّا خيلُها فكان عليها زمعةُ بنُ الأسودِ، وفي رِوايةٍ أَنَّه الحارثُ بنُ هشامٍ، وهو أحدُ إخوةٍ ثلاثةٍ لأبي

جهْلٍ، شَهِدُوا معه بَدْرَاً، وكانت رِياسةُ النّاسِ في جيشِ المُشركين لِعُتْبَةَ بنِ ربيعةَ مِنْ بني عبدِ شمسٍ، وقد رآه النبيُّ، وهو يجتازُ الواديَ، على جملٍ له أحمرَ، فقال لأصحابِهِ:

ــ إنْ يكن في أحدٍ مِن القومِ خيرٌ فعندَ صاحبِ الجملِ الأحمرِ، إنْ يُطيعُوهُ يَرْشُدوا.

وعندما اطمأنتْ قُرَيْشٌ إلى مواقعِهَا، وَاسْتقرَّتْ جموعُها في أماكِنِهَا، بعثتْ عُميرَ بنَ وهبٍ الجُمَحِيَّ لِيَحْزَرَ للمشركين عددَ المسلمين ويُقدّر قوّتَهُم، فجالَ بِفرسِهِ حولَ عَسْكَرِهِم، ثم رجعَ إليهم فقال:

ــ هم ثلاثُمائةِ رجلٍ، يزيدون قليلاً أو ينقُصون! ثم سألهم أن يُمهلوه ثانيةً حتّى ينظرَ أَلِلمسلمين كَمِيْنٌ أَعَدُّوه، أو مَدَدٌ يرجونَهُ؛ وجالَ

بفرسِهِ في الوادي حتّى أبعدَ فلمَ يَرَ شيئاً، فرجعَ إليهِم فقال:

ــ ما وجدتُ شيئاً، فليس لِأصحابِ محمدٍ كمينٌ ولا مددٌ! فَارتَاحَ المشركون لِقلّةِ المُسْلمين، وقدّروا أَنَّ النَّصْرَ على مُحَمّدٍ (ص) والمئاتِ الثلاثِ مِن أَصْحَابِهِ أَضْحَى قريباً، وَلكنّ عُميرَ بنَ وهبٍ تابع قوله لهم:

ــ ولكنّي يا معشرَ قُرَيْشٍ رأيتُ البلايا تَحمِلُ إليكم المنايا: إبلَ يَثْرِبَ تحملُ الموتَ الزُّؤَامَ، فَأَمَامَكُم قومٌ ليس لهم مَلْجأ إلاّ سيوفُهُم، فلا يموتُ منهم رجلٌ قبل أَنْ يَقْتُلَ رجلاً مثلَه منكم، فإذا قَتَلُوا منكم ثلاثمائة، وَأَنْتم صفوةُ قُرَيْشٍ فكيف تكون حالُ مكّةَ ومكانتُهَا مِنْ بَعْدِكُم، وما خيرُ

العيشِ لِمَنْ يبقى بَعْدَ ذلكَ، فَفكِّرُوا فيما أقولُ، وَرَوْا رأيكم!

وأَثَارتْ كلماتُ عُميرِ بنِ وهبٍ بصَرَاحَتِهَا وصدقِهَا مخاوفَ بعضِ ذَوي الحكمَةِ والتَّعَقُّل من الرجالِ، فمشى بعضُهُم إلى عُتبةَ بنِ ربيعةَ وقال له:

ــ يا أبا الوَليدِ، إنك كبيرُ قُرَيْشٍ وسيِّدُها، والمُطاعُ فيها، فهلْ لكَ أَنْ تأتيَ خيراً يُذْكَرُ لكَ إلى آخر الدَّهرِ: أَنْ ترجعَ بِقُرَيْشٍ دونَ قِتالٍ، وتحملَ دمَ حليفِك عمروِ بنِ الحضرميِّ، فَتُؤَدِّيَ دِيتَه إلى أَهْلِهِ مِنْ مالِكَ، فَتَمْنَعَ بذلك سَفْكَ الدِّماء!

وقال له آخر، وقد رآه يُصْغِي إلى دَعْوَةِ السَّلام:

ــ يا أبا الوَليدِ، أَنْتَ سيّدُ العَشيرةِ، فما يَمْنَعُكَ أَنْ تَحْمِلَ وَقومُكَ دمَ حَليفِكَ، والقافِلةَ التي أصابها أصحابُ محمدٍ، وليس لكم قِبَلَ محمدٍ بَعْدَ سلامةِ قافِلةِ أبي سفيان غيرُ دمِ ابنِ الحضرميِّ وَقَافِلَتِهِ، فإنْ تحمّلتَ ذاك لَتَكُونَنَّ دَاعِيةَ الخيرِ والسلامِ في قومِكَ، فواللهِ يا أبا الوليدِ ما تَقْتُلُون بمحمدٍ وأصحابِهِ إلاّ أَنْفُسَكم!

وأجابَ عُتبةُ بنُ ربيعةَ إلى دَعْوةِ العُقَلاءِ مِن قُرَيْشٍ، وأَعْلَنَ أنه يُؤَدّي دِيَةَ حليفِهِ ابنِ الحضرميِّ، وَيَحْتَمِلُ ما أصيبتْ به قافلتُهُ، مِنْ مالِهِ، ولكنّه كان يخشى حِدَّةَ أبي جَهْلٍ واتهامَهُ لِدُعاةِ السَّلامِ بالخوفِ والجُبنِ، فطلب منهم أَن يُفاوضوا أبا جهلٍ أيضاً لِيُقْنِعوهُ بذلك، لكي تَتَّخِذَ قُرَيْشٌ مَوقفاً واحداً يَحْفَظُ وحدتَها، ولا يُثيرُ

الخلافَ بين أحيائِهَا، وكان عُتبةُ بنُ ربيعةَ سَيّداً عاقِلاً رشيداً، ذا رَأْيٍ وحِلْمٍ وَفَضْلٍ، فلمْ يُخْفِ عن قُرَيْشٍ أَنّ مِنَ التَّبَصُّرِ والحكمَةِ أَنْ تُراجعَ موقفَهَا قبلَ الهجومِ على محمدٍ وأصحابِهِ، فوقفَ فيهم خطيباً وقال:

ــ يا معشرَ قُرَيْشٍ، إنّكم واللهِ ما تَصْنَعُونَ بِأَنْ تَلْقَوْا محمداً وأصحابَهُ شيئاً، واللهِ لَئِنْ أصبتُمُوهُ لا يزالُ الرجلُ منكم يَنْظُرُ في وَجْهِ رجلٍ يَكْرَهُ النظَّرَ إليه، لِأَنّه قتلَ ابنَ عمِّهِ، أو ابنَ خالِهِ، أو رَجُلاً مِنْ عشيرتِهِ، فارجعوا وخَلُّوا بين محمدٍ وبين سائرِ العرب، فإنْ هم أصابوه فذاك الذي أردتم، مِنْ غيرِ أَنْ تأتوه بأنفسِكُم، وَإنْ كان غيرَ ذلك لم نَتعرَّضْ منه لِما تكرهون!

دعوةٌ عاقلةٌ حكيمةٌ، لو أَنَّ قريشاً أَطَاعَتْ

صاحبَهَا لَأَصابتْ في ذلك اليوم رُشْدَها، كما قال محمدٌ (ص) لِأصحابِهِ قَبْلَ قليلٍ، ولكنّ أمرَ قُرَيْشٍ لم يكنْ في ذلك اليومِ العصيبِ بِيَدِ عُقلائِهَا وحكمائِهَا، بَلْ كان في يَدِ أبي جَهْلٍ المخزومي، رأسِ أئمّةِ الكُفْرِ، وفرعونِ هذه الأمّةِ، كما سمّاهُ النبيُّ لِأصحابِهِ، وهو رجلٌ خفيفٌ، حديدُ الوجْهِ حديدُ اللسانِ ــ أي ذو حِدّةٍ في الغضبِ تبدو في عبوسِ وجهِهِ وسلاطَةِ لِسانِهِ ــ فَلَمّا بلغَتْهُ مقالةُ عُتْبَةَ وأخبارُ الساعين إلى السِّلمِ، استشاطَ غَضَباً وغَيْظاً، وأرسلَ لسانَهُ فيهم، وراح يَتَّهِمُ عُتبةَ بنَ ربيعةَ بالخوفِ والجُبْنِ حيناً، وبالخوف على ابنِهِ أبي حُذيفةَ حيناً آخر، وهو مِنْ أصحابِ محمدٍ ويُحاربُ معَهُ، أَنْ تَقْتُلَهُ قُرَيْشٌ في يومها، فلمّا سَمِعَ عُتبةُ اتهاماتِ أبي جَهْلٍ له، زايلَه حلمُه،

وأدْرَكَ أنَّهُ لا بُدَّ مِنْ خوضِ المعركةِ في ذلك اليومِ، وسيخوضُها هو والعقلاءُ والحكماء من قُرَيْشٍ، مغلوبينَ على أمرِهِم، مَدْفُوعينَ إليها دَفْعاً، وَراءَ قيادةٍ غيرِ رشيدةٍ، فقد تغلَّبَ أبو جَهْلٍ – إذا – بطيشِهِ واندفاعِهِ واستثارتِهِ النّاسَ، وتحريضهم على الثَّأْرِ مِنْ مُحَمّدٍ وأصحابِهِ، حينَ بَعَثَ إلى عامِرِ بنِ الحضرميِّ – أخي عمرِو بنِ الحضرميِّ – وقال له أمام جُموعِ قُرَيْشٍ:

– هذا حليفُكَ عُتبةُ بنُ ربيعةَ يريدُ أَنْ يَرْجِعَ بِالنّاسِ مِنْ غيرِ قِتالٍ، وقد رأيتَ ثَأْرَكَ لِأَخيكَ مِنْ محمدٍ وأصحابِهِ بعينِكَ، فلا تُضِعْهُ، وقُمْ فَاطْلُبْ مِنْ حُلَفائكَ الوفاءَ بِعَهْدِهِم لَكَ، وَانْشُدْ ثأرَكَ لِمَقْتَلِ أخيكَ!

وَنهضَ عامرُ بنُ الحضرميِّ مُهتاجاً، وكَشَفَ

عَنِ اسْتِهِ ـ مُؤَخرَتِهِ ـ أمامَ الجموعِ، وَحَثَا عليها الترابَ، وصاحَ في النّاسِ يندبُ أخاهُ:

ـ واعَمْراه! واعَمُراه.

فلم يبقَ بعدَ ذلكَ مِنَ الحربِ مَفَرٌّ، وَأَخْفَقَتْ جهودُ السَّلامِ.

وقائع المعركة

ارتفعَ النهارُ والمسلمون على صفوفِهِم يَنتظرُون زحفَ المشركين وهجومَهُم، بعد أَنْ طافَ النبيُّ بالصّفوفِ وعدَّلَهَا، وخطبَ في أصحابِهِ فحثَّهُمْ على الإِخْلاصِ للهِ، ورغَّبَهُم في الأَجْرِ، وحضَّهم على الصبرِ، ثم قال لهم:

ـ لا تُقاتلوا حتى أؤذِنَكُم وآمرَكُمْ، وَإنِ اكْتَنَفُوْكُم وأحاطوا بكم فَارْمُوْهُم بِالنَّبَالِ، ولا تسلُّوا السيوفَ حتى يَغْشَوْكم!

وَرَجَعَ محمدٌ (ص) إلى العَرِيشِ مع صاحبِهِ

أبي بكرٍ، لِيُصَلِّيَ ويُناشدَ ربَّه ما وعدَهُ مِنَ النَّصْرِ، ويسغيثَ به:

«اللهُمَّ نصرَكَ الذي وعدتني..
اللهم إنْ تهلكْ هذه العصابةُ ـ جماعةُ المؤمنين ـ اليومَ لا تُعْبَدْ بعد اليوم في الأرضِ..
اللهم إنّي أسألُكَ عهدَكَ ووعدَكَ...؟

وأغمضَ النبيُّ عَيْنيْهِ، وغشيَةَ نومٌ غَلَبَهُ، مِنْ كثرةِ الإجهادِ والإعياءِ ثم استيقظَ على صوتِ أبي بكرٍ وهو يُخبرُهُ ببِدايةِ المعركةِ:

ـ يا رسولَ الله قد دنا القومُ، وقد نالوا منّا!

وكان عامرُ بنُ الحضرميِّ قد هيجَ قُرَيْشاً بِصَرَخاتِهِ (واعَمْراه) واندفعَ نحو صفوفِ المُسْلمين، ورمى عن قوسِهِ بِسَهْمٍ، فأصاب مِهْجعاً، مولى عمرَ

بنِ الخطّابِ، فَقَتَلَهُ، فكان أولَ شهيدٍ للمسلمين في المعركةِ، ورمى أحدُ المشركين بِسَهْمٍ آخر فأصاب حارثة بْنَ سراقةَ مِن الأَنْصارِ، وهو يشربُ مِنَ الحوضِ، فأرداه قتيلاً؛

وغادر النبيُّ العريشَ، وأقبَلَ على المسلمين يُحرِضُهُمْ، ويقولُ لهم:

ـ والذي نفسُ محمدٍ بيدِهِ، لا يُقَاتِلُ المشركين اليومَ رجلٌ فيُقْتَلُ صابِراً مُحتسِباً، مُقبِلاً غيرَ مُدبرٍ، إلاَّ أدْخَلَهُ اللهُ الجنةَ!

واندفعَ مِنْ صفوفِ المشركين الأسودُ بنُ عبدِ الأسدِ المخزوميِّ، وكان رجلاً شرِساً سيءَ الخُلقِ، وهَجَمَ على حوضِ المسلمين يريدُ أَنْ يهدمَهُ، فعاجلَهُ حمزةُ بنُ عبدِ المُطّلبِ، وكان أقربَ المسلمين إلى المشركين يومَ بَدْرٍ، بِضَربةٍ مِنْ سيفِهِ أطاحتْ

بِسَاقِهِ، فسقطَ دونَ الحوضِ واقعاً على ظهرِهِ، ورجلُهُ تشخُبُ دماً، ثم حبا إلى الحوضِ لِيَقْتَحِمَهُ، فثنّى عليه حمزةُ بضربةٍ قاضيةٍ أجهزتْ عليه.

وبعد ذلك خرج ثلاثةٌ من صفوفِ المشركين يدعونَ المسلمين إلى المبارزةِ، فَتَصَدَّى لهم ثلاثةٌ مِنَ الأَنْصارِ، مِنْ شَبابِهِم، فسألهم المشركون:

ــ مَنْ أنتم؟

ــ رَهْطٌ مِنَ الأنصارِ.

ــ ما لنا بِكُم مِنْ حاجةٍ، فحاجتُنَا قومُنا مِنَ المهاجرين!

وكان المشركون الثلاثة هم: عُتبةُ بن ربيعةَ، وأخوه شيبةُ، وابنُهُ الوليدُ، ونادى مناديهم بِأَعْلَى صوتِهِ:

ــ يا محمدُ، أَخرِجْ إلينا أكفاءنَا مِنْ قومِنَا.

وكان خروجُ عُتبةَ بنِ ربيعةَ لِطَلبِ البِرَازِ مع أخيه وابنه، مُنْذُ الساعةِ الأولى لِلمَعْركةِ رداً انفعالياً عاجلاً على اتهامِ أبي جهلٍ لُعتبةَ بالجُبنِ والخوفِ، وهو الذي كان يَنْصَحُ قبلَ قليلٍ قومَهُ بِالانْصِرافِ عَنِ القِتالِ، وعندما تخطّى صفوفَ المشركين لِطَلبِ البِرَازِ صاحَ فيه واحدٌ من عُقلاءِ قُرَيْشٍ، مِمَّنْ كانوا يَدْعُون إلى السَّلامِ وتركِ القتالِ:

ـ مهلاً أبا الوليدِ مهلاً! تَنْهَى عَنْ شيء وتكونُ أوّلَه! ولكنّ عُتبةَ كان مجروحَ الكِبْرِياءِ، مُتَّهَماً في شجاعتِهِ في انتصارِهِ لِابْنِ الحضرميِّ حليفِهِ، مُفْتَرىً عليه في تخوّفِهِ على أصحابِ النبيِّ لوجودِ ابنِهِ أبي حُذَيْفَةَ معهم، فلم يكنْ له أمامَ تحدّيْ أبي جهلٍ المخزوميِّ له إلاّ أَنْ يكونَ أولَ

المبارزين حِفَاظاً على كرامتِهِ وكِبْرِيائِهِ، وهو كبيرُ قُرَيْشٍ وسيّدُهَا في ذلك اليومِ.

وعندما طلبَ عُتبةُ من النبيِّ أَنْ يُخْرِجَ الأكفاءَ له ولأخيه ولابنه الوليد، تَصَدّى لهم ابنُهُ أبو حُذيفةَ مِنْ صفوفِ المسلمين ولكنّ النبيَّ رَدَّهُ، وأمرَ ثلاثةً من المسلمين مِن بني هاشمٍ أَنْ يخرجوا إلى لِقائِهِم، فبَرَزَ لهم حمزةُ بنُ عبدِ المطّلبِ، وعليُّ بنُ أبي طالبٍ، وعُبيدةُ بنُ الحارثِ بنِ عبدِ المطّلبِ، وأمسكَ الناسُ أنفاسَهُم لِيشهدوا صِراعَ الأَبْطالِ في وسطِ الميدانِ بَيْنَ الفريقين، ولكنَّ حمزةَ لم يُمْهِلْ خصمَهُ شيبةَ أَنْ قَتَلَهُ، وكرَّ عليٌّ على الوليدِ فأرداه، وتبادلَ عبيدةُ وعُتبةُ ضربتين فأصيبا إصابةً بالِغَةً، فَكَرَّ حمزةُ وعليٌّ على عُتبةَ فأجهزا عليه، واحتملا عُبيدةَ وعادا به إلى صفوف

المسلمين، فهلّلوا وكبّرُوا، وَتَعالتْ صيحاتُهُم: أَحَدٌ أحد! وأصابَ المشركين الفزعُ والرعبُ، وارتجتْ قلوبُهُم، وقد هالَهُم أَنْ يَقْتُلَ المسلمون ثلاثةً مِنْ صنادِيدِهِم، وفيهم كبيرُ قُرَيْشٍ وسيِّدُها، منذ الساعةِ الأولى لِلصِّدامِ، وصاحَ أبو جَهْلٍ في صفوفِ المقاتِلةِ، يُحرِّضُهُم على الثباتِ، ويُمنِّيْهم بِالنَّصْرِ القريبِ:

ــ يا معشرَ قُرَيْشٍ: لا يَهُولَنّكم قتلُ عُتبةَ وشيبةَ والوليدِ، فإنهم قد عجِلوا، فَواللّاتِ والعُزّى، لا نرجِعُ حتّى نقرِنَهم بالحِبال! (نقيدّهم فيها جماعات).

واستَلَّ المشركون سيوفَهُم وزحفُوا، وعند ذلك أخذَ النبيُّ حَفْنَةً مِنَ الحَصْباءِ، وَاسْتَقْبَلَ بها

الزَّاحِفِين ثم قال: «شاهَتِ الوجوهُ» ثم نَفَحهم بها، وأعطى أمرَهُ للمسلمين بِمُلاقاةِ الزَّحْفِ:

ــ يا معشرَ المسلمين شُدّوا على عدوِّكم!

وتَلاقَى الجَمْعَانِ، وَاخْتَلَطَتِ الصّفوفُ، وسَالتِ الدِّماءُ أنهاراً، وراحَ المسلمون يَحْصِدُونَ المشركين حَصْدَاً، في قتالٍ مُسْتَمِيتٍ، وكانوا يُوَجِّهُونَ ضَرَبَاتِهِم الماحِقَةَ إلى رؤوسِ الشِّرْكِ من زُعماءِ قُرَيْشٍ وساداتِهَا، لِيَسْتأصِلُوهُم، انتقاماً لِما كانوا يَلْقَوْنَ منهم في مكّةَ من تعذيبٍ واضطهادٍ، ولِما صَدُّوهم عَنِ المسجِدِ الحرامِ وعَنْ سبيلِ اللهِ، وكان النبيُّ القائدُ يتخلَّلُ الصفوفَ، ويحرّضُ المسلمين فتسري من نفسِهِ القويَّةِ إلى نفوسِ أصحابِهِ المؤمنين برسالتِهِ قوةٌ تزيدُ في اسْتِبْسَالِهِم، وتجعلُ الواحدَ منهم يَصْمُدُ للاثنين وللثلاثة من

المشركين، وبذلك كان سلاحُ الإيمانِ في قلوبِ المسلمين يُعوِّضُهُم عن قِلَّةِ عددِهِم وعُدّتهم، فَتَراموا على أَعْدائِهِم قتلاً وأسراً، ونادى مُنادِي النَّبيِّ فيهم:

ــ مَنْ قَتَلَ قتيلاً فَلَهُ سَلَبُهُ، وَمَنْ أَسَرَ أسيراً فهو لهُ!

وعندما استحرّ القتلُ في المشركين، ورأتْ بنو مخزومٍ ذلك، تجمعتْ حولَ أبي جَهْلٍ وأحدقَتْ بِهِ لِتَحِميَهُ وتَمْنَعَهُ، وقال قائلهم:

ــ يا بني مخزومٍ، هذا أبو الحَكَمِ، فَاحْرِصُوا ألاّ يَخْلُصَ أحدٌ من المسلمين إليه!

وسَمِعَ معاذُ بنُ عمروٍ قولَهُ، وَعَرَفَ أبا جهلٍ، فَقَصَدَ نحوَهُ، وتحيَّنَ الفُرصةَ حتّى واتتهُ، فَحَمَلَ عليه

وضرَبه ضربةً بالسّيفِ أطاحتْ بنصفِ ساقِهِ، فضربَ مُعَاذاً على عاتقِهِ فقطعَ له يَده ومالَ على أبي جهلٍ إثرَ ذلك فتىً من الأنْصارِ (مُعوِّذُ بنُ عفْراء) فَضَربَهُ وجرحَهُ جِراحةً لا يقومُ معها، وتركه وبِهِ رَمَقٌ، وظلّ أبو جَهْلٍ في مكانه تَنِزفُ جِراحُهُ حتّى انتهتِ المعركةُ بهزيمةِ قُرَيْشٍ، وطافَ المسلمون بالقتلى. فوجدَهُ عبدُ الله بنُ مسعودٍ بآخرِ رمقٍ، فاحتزَّ رأسَهُ، وحملَهُ إلى النبيِّ وَأَلْقاهُ بين يديه.

وَأسَرَ عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ أُمَيَّةَ بنَ خلفٍ وابنَهُ عليّاً، وَأَبْصَرَ بلالٌ بأميّةَ، (وكان أميّةُ هو الذي عذَّبَ بلالاً في مكّةَ، ووضعَ الصَّخْرَةَ على صدِرِهِ، لِيَفْتِنَهُ عن دينِهِ، وبِلالٌ يصيحُ أَحَدٌ أَحَدٌ)، فأَقْبَلَ عليه وصاحَ به:

ــ أميّةُ بنُ خلفٍ رأسُ الكُفْرِ، لا نجوتُ إنْ نَجا!

وحاولَ ابنُ عوفٍ أَنْ يَحْمِيَ أسيرَهُ، فَاسْتَعانَ بلالٌ بِالأَنْصارِ، فأقبلوا عليه، ولم ينصرفوا حتى قُتِلَ أميّةُ!

واستمرّ القتلُ والأسرُ في قُرَيْشٍ، وعاد النبيُّ إلى العريشِ، وقد تجلَّتْ بوادِرُ النَّصْرِ لِلمسلمين، وسعدُ ابنُ معاذٍ على بابِ العريشِ، في نفرٍ مِنَ الأنصارِ، يحرسون النبيَّ، و يَخافونَ أَنْ يكرَّ العدوُّ عليه، وكان سعدٌ يرى المسلمين وَهُمْ يَأْسِرُونَ المشركين فلا يسرّه ذلك، ورآه النبيُّ فقالَ لهُ:

ــ واللهِ لكأنَّكَ يا سعدُ تكْرَهُ ما يَصْنَعُ القومُ!

فقال:

ــ أَجَلْ واللهِ يا رسولَ اللهِ، فهذه أوَّلُ وَقْعةٍ أوقعها اللهُ بأَهلِ الشِّركِ، والإثخانُ في القِتلِ بأهلِ

الشركِ لِلقضاءِ عليهم أحبُّ إلى نفسِي مِنِ استِبْقَائِهِم!

وقد كان بين المسلمين مَنْ يرى رأيَ سعدٍ، فأثخن في القتل، فعليٌّ بنُ أبي طالبٍ يَقْتُلُ من مشركي قُرَيْشٍ، أو يُشْرَكُ في قتلِ اثنين وعشرين منهم، وحمزةُ بنُ عبدِ المطَّلبِ يَقْتُلُ وَ يُشْرَكُ في قتلِ عشرة منهم، وعمارُ بنُ ياسرٍ يَقْتُلُ خمسةً، وقد كان فَتْكُ حمزةَ وأبي دُجانةَ بالمشركين كبيراً، واعترفَ المشركون أنفسُهُم بأنّهما فَعلا بهم الأفاعيلَ، وتكشّفتِ المعركةُ يومَ بَدْرٍ عَنْ بُطولاتِ عدد مِنَ الصحابَةِ، وكانتْ مقدمةً لِتاريخٍ حافلٍ بالبطولاتِ المجيدةِ التي سَتَشْهَدُها معاركُ النبيِّ القادمَةُ في سبيلِ نَشْرِ الإسلامِ، ومعارِكُ خُلفائِهِ في الفتوحاتِ مِنْ بعدِهِ.

ومع زوالِ الشّمسِ مِنْ ذلك اليومِ العَصِيْبِ كان انهزامُ قُرَيْشٍ، فَوَلّى أهلُ مكّةَ الأدبارَ، والمسلمون وراءهُم يَقْتُلُونَ وَيَأسِرُونَ، وكان المشركون المنهزمون يُلْقُوْنَ الدُّرُوعَ والأسلحةَ لِكَثْرَتِهَا، لكي يَتَخَفَّفُوا منها في هَرَبِهِم، والمسلمون يطاردونهم ويلتقِطُونَ ما طَرَحُوا مِنْ سِلاحٍ، وَاسْتَفَادَ المشركون مِنْ خيْلِهِم فطاروا عليها فِراراً مِنَ الموتِ والأَسْرِ، والمسلمون يتعقَّبُونَهُم!

وكان الهاربون يُوَارُونَ من الإذْلالِ والخَجلِ وجوهَهُم، وكان المسلمُ الواحدُ يَأسِرُ العددَ من المشركين ويقرنهم بالحِبالِ، ويسوقهم أمامَهُ، وَأَسَرَ أحدُ الأنصارِ ثلاثةً مِنْ بني هاشمٍ، وهم العبّاسُ ونوفلٌ وعَقيلٌ؛ فقرَنَهُم في حَبلٍ، وأتى بِهِم رسولَ اللهِ فَسَمّاهُ «مُقْرِناً»، وكان محمدٌ (ص) أَوْصَى أَصْحَابَهُ

بالإبقاء على حياةِ بني هاشمٍ مِنَ الخارجين إلى بَدْرٍ مع قُرَيْشٍ، لِحِمَايتِهِم لهُ مِنْ أَعدائهِ طَوالَ ثلاثةَ عَشَرَ عاماً مِنْ دعوتِهِ إلى الإسلام في مكّةَ، وتَحمُّلِهم قَطِيعَةَ قُرَيْشٍ لهم مِنْ أَجْلِهِ، وقد خرجوا مُسْتَكْرَهِيْنَ وَهَوَاهُم مع محمدٍ (ص)، كما أَوْصَى النّبيُّ بِالابقاءِ على بعضِ القُرشيّيْنَ مِنْ غيرِ بني هاشمٍ، مِمَّنْ تقدَّمَ لهم معروفٌ أو إِحْسانٌ إلى المسلمين في مكّةَ، فالمسلمون لا يَقْتُلُونَ مَنْ أَحْسَنُوا إليهِم يوماً.

وبعد أَنْ أَتَمَّ المسلمون مُطارَدَةَ فُلولِ المشركين، راحوا يَجْمَعُونَ غنائِمَهُم وأَسْرَاهُم، وتفقَّدَ محمدٌ (ص) جُثَثَ الشُّهَدَاءِ مِنَ المسلمين، وكانوا أربعةَ عَشَرَ رجلاً، فَأَمَرَ بِدفنِهِم، وراح يطوف على جُثَثِ القَتْلَى مِن قُرَيْشٍ، وكانوا سبعين رجلاً، وأبو بكرٍ إلى جانبِهِ، يُخبِرُهُ بِهِم رجلاً رجلاً، والنبيُّ يحمدُ اللهَ وَيَشْكُرُهُ على نَصْرِهِ المؤمنين، ويقول:

الحمدُ للهِ الذي أَنْجزَ ما وَعَدَنِي، فقد وعدني إِحْدَى الطائفتين!

ثم أمر المسلمين أَنْ يَجْمَعُوا جُثَثَ القَتْلَى و يَطْرَحُوها في قَليبِ بَدْرٍ (والقليبُ البئر)، فجرّوها إليه، ووَارُوْهَا فيه، ووَقَفَ النبيُّ على القليبِ، ونادى بِصَوْتٍ كان له صَدًى في جوفِ الليلِ، والمسلمون وقوفٌ يسمعون:

ــ يا أهلَ القليب: يا عُتبةُ بنُ ربيعةَ، و يا شيبةُ بنُ ربيعةَ، و يا أُميّةُ بنُ خلفٍ، و يا أبا جَهْلِ ابنَ هشامٍ ــ وراحَ يُعدِّدُ أسماءَ من طُرِحوا في القليبِ ــ هَلْ وجدْتُم ما وَعَدَكُم ربُّكُم حقاً؟ فإنّي قد وجدْتُ ما وعدني رَبّي حقاً...

يا أهلَ القليبِ: بِئْسَ عَشيرةُ النبيِّ كُنْتُم

لِنبِّيكم! كذّبتموني وصدّقني النّاسُ، وأخرجتموني وآواني الناسُ، وقاتلتموني ونَصرني الناسُ!

وقال بعض المسلمين:

ــ يا رسولَ اللهِ، أَتكلِّمُ قوماً مَوتى؟ أتُنادي قوماً قد صاروا جيفاً!

فقال النبيُّ:

ــ ما أنتم بِأَسْمَعَ لِما أقولُ منهم، ولكنَّهُم لا يستطيعون أَنْ يُجيبوني!

وهكذا أَتَمَّ اللهُ نَصْرَهُ للمؤمنين في أوْلى مَعارِكِهِم مع الشِّرْكِ فكانت معركةً فاصلةً: استمرّتْ وقائعُهَا سحابةَ النَّهارِ: بدأتْ مع صباحِ يومِ الجُمُعَةِ في السابعَ عَشَرَ مِنْ رَمَضانَ، وَانْتهتْ مع المساءِ مِنَ اليوم نفسِهِ، ولكنّ نتائجَ المعركةِ وآثارَهَا الكبيرةَ سَتَمْتَدُّ

مع تاريخِ الإسلامِ الطَّويلِ الذي يَدِينُ بِحَياتِهِ
لِلانتصارِ الحاسِمِ في يومِ بَدْرٍ.

عوامل النصر الحاسم

نظرة تحليلية

لم تحسبْ قُرَيْشٌ لِانتصارِ محمدٍ (ص) في بَدْرٍ عليها حِسَاباً، ولم تكنْ تَتَوقَّعُهُ، وكانت في غرورِها واعتدادِها بِكثرتِهَا تنتظِرُ أَنْ تنجليَ المعركةُ عَنْ سَحْقِ المسلمين والقضاءِ على محمدٍ وأصحابِهِ ودعوتِهِ قضاءً مُبْرَماً، ولهذا كانتْ قُرَيْشٌ قبْلَ المعركةِ مُشْفِقَةً على المُهاجرين مِنْ أَبنائِهَا، وكان ذوو الرأي فيها يحضُّون على أَنْ يكونَ الفَتْكُ وَالإِثخانُ في القَتلِ مَقْصُوراً على أَهْلِ يَثْرِبَ مِنَ الأنصارِ، للإبقاءِ على

المهاجرين مِنْ قُرَيْشٍ، وأَسْرِهم وردِّهم إلى مكّةَ وإلى الوثنِيَّةِ دينِ آبائِهِم وأجدادِهِم، بعدَ القضاءِ على الدِّينِ الجديدِ.

وما كانتْ قُرَيْشٌ تَظُنُّ أنَّها مُغاليةٌ في تقديرِ قِوَاها، أو أنَّها مُخْطِئَةٌ في الاستخفافِ بعدوِّهَا: فالتفاوتُ بين الطرفين كبيرٌ في كلِّ شيءٍ لمصلحتهم دونَ المسلمين، عدداً وسلاحاً ومتاعاً وخيلاً وإبلاً، وقد خَرَجَ المسلمون في غيرِ أهبةٍ، وعلى عَجَلَةٍ لكي يتصدوا لِقافِلةِ أبي سفيانَ قبل أَنْ تَفُوتَهُم، وتخلَّفَ في المدينةِ مِنْ أصحابِ محمدٍ عددٌ كبيرٌ، وأكثرهُمُ مِنَ الأوسِ، مِنْ ذَوِي الشدَّةِ والشَّوْكةِ والصَّبْرِ عندَ اللقاءِ، لِأنَّ منازِلَهُم كانت في عوالي المدينة (ضواحيها

من جهةِ نَجْدٍ)، وجاء النفيرُ بَغْتَةَ ــ كما رأينا ــ واقتصرَ الخروجُ على مَنْ كان ظَهْرُهُ حاضِراً ورِكابُهُ مُيَسَّراً، أما أَهْلُ مكّةَ فقد خرجوا في تَعْبِئَةٍ عامةٍ وتأهّبٍ كبيرٍ واستعدادٍ تامٍ؛ وقد ضمَّ جيشُ مكّةَ رجالاً أغنياء، مِنَ المُوْسِرِيْنَ مِنْ أشرافِ مكّةَ وأربابِ المالِ والتجارةِ الوَاسعةِ فيها، وقد حَمَلُوا السِّلاحَ الكثيرَ، وأكثروا مِنَ الرِكابِ (ففي جيشِهِم من الخيلِ مائةٌ ومن الإبل مئات ُسبعٌ)، وكانوا في كلِّ مَرْحلةٍ يَنْحَرُونَ عشراً من الجُزُرِ (النياق) ليطعموا، وقد اصطَحَبُوا معهم لِرَفاهِيَّتِهِم الخمرَ والقِيانَ والدُّفوفَ! أما جيشُ محمدٍ فكان يضمُّ رجالاً فقراء، وقد دعا النبيُّ لهم ربَّهُ حينَ خَرَجَ بهم

مِنَ المدينةِ:

ـ اللهُمَّ إنّهُم حُفاةٌ فاحملهم، وعُراةٌ فاكسُهم، وجياعٌ فأشبِعْهم، وعَالَةٌ فقراء فأَغْنِهم مِنْ فَضْلِكَ!

وليس معهم مِنَ السِّلاحِ ما يَكْفِيهِم، فإذا تكسَّرَ سيفُ أحدِهِمْ في المعركةِ ـ شَأْنَ عُكّاشَةَ بنِ مَحِصْنٍ ـ لمْ يجدْ ما يُقاتِلُ به غيرَ عودٍ مِنْ حَطَبٍ أعطاه النبيُّ إياه لِيحارِبَ به، ولم يكن مع محمدٍ وأصحابِهِ غيرُ فرسين مِنَ الخيلِ، وسبعين مِنَ الإبلِ، فكانوا في سيرِهِمْ يتعاقبُ الثلاثةُ أو الأربعةُ على بعيرٍ واحدٍ، حتّى إنّ بعضَ الصحابَةِ لمْ يجدوا ما يركبون، وقد شَهِدَ سعدُ بنُ أبي وقّاصٍ بأنّه لمْ يَرْكبْ خطوةً ذاهباً ولا راجعاً مِنْ بَدْرٍ، أمّا الزّادُ

الذي حَمَلَهُ المسلمون معهُم فقد   تزوّد كلُّ بَعيرِ بِصَاع ٍمِنْ تَمْرٍ!

ولهذا كُلِّهِ كانتْ قُرَيْشٌ تسير إلى بَدْرٍ وكلُّها اعتدادٌ بقوّتها، وفخرٌ بكثرتها، وبَطَرٌ بِغِناها، وحِرْصٌ على أن تَستَرِدَّ هيبتَها ونُفوذَها في القَبائلِ، وقد وَصَفَ القرآنُ مُشْركي قُرَيْشٍ في بدر بأنَّهُم «خرجوا من دِيَارِهِم بَطَراً ورِئاءَ النّاسِ» لِيَصُدّوا المؤمنين عَنْ سَبيلِ اللهِ، وقد «زَيَّنَ لَهُمُ الشيطانُ أعمالَهُم وقال: لا غالبَ لكمُ اليومَ مِنَ النّاسِ!» أما المسلمون فقد وَجَدُوا أنفسَهُم في بَدْرٍ قِلَّةً مُسْتَضْعَفَةً في مُواجَهةِ عددٍ مُكاثِرٍ، يفوقُهُم عَدَداً واستعداداً، لِيَخُوضُوا أمامَهُ أوّلَ تجاربهم لِإثْباتِ ذاتِهِمُ الحربية، وما أَصْعَبَ التجربة وما أشقَّها!

ومن هنا كان انتصارُ المسلمين الحاسمُ في بَدْرٍ، وَهُمْ ثلاثمائة مِنَ الأَذِلَّةِ المُسْتَضْعَفِينَ على قُرَابةِ ألفٍ مِنَ الرِّجالِ المُعْتَدِّين المجرّبين الأقوياء، مُعجزة ً مِنْ مُعْجِزَاتِ الحربِ: مُعجزة ً حقيقيّةً جَهِدَ كثيرٌ من الباحثين في تفسيرها وتعليلها، وسنلقي نظرة تحليليّةً على أهَمِّ العواملِ التي أَسْهَمَتْ في تحقِيقِ هذه المعجزةِ!

— ١ —

في مقدمةِ عواملِ النَّصْرِ الإسلاميِّ الحاسِمِ في بَدْرٍ وحدةُ المسلمين: **قيادة ً وجيشاً وهدفاً**، وهي وحدة ٌ مُحْكَمَةٌ لَمْ يَعْرِفِ العربُ قبلَها مثيلاً لها في إحْكامِهَا وَتَمَاسُكِهَا، فَقَد كان أَصْحابُ محمدٍ مِنْ

حولِهِ بِنَاءً واحداً متراصاً ، غايتُهُم الدِّفاعُ عَنْ رسالتِهِ التي آمنوا بها وأَخْلَصُوا لها ، ولهذا لمْ يُفارِقْ أحدٌ منهم الجيشَ لِلنَجاةِ بنفسِهِ ، بَعْدَ أَنْ تبيّنَ لَهُم أَنَّهُم سيلاقون قُرَيْشاً في كثرتِهَا الكاثِرةِ الزَّاحِفةِ إليهم ، مع أنّ فِئَةً منهُم كانتْ كارهَةً لِلقِتالِ ، كما قَدَّمْنَا ، ولكنَّ أَصْحابَ النبيِّ جميعاً قاتلوا في بَدْرٍ ، ببطولةٍ وَاستِشْهَادٍ حتّى النَّصْرِ ، وكانوا حَوْلَ قائدِهِمْ العظيمِ كَالْبُنْيَانِ المرصُوْصِ ، يَفْتدونَهُ بالمُهَجِ والأرواحِ ، ويُنفِّذونَ خِطّتَهُ وأوامِرَهُ بِروحٍ مِنَ المحبَّةِ والطَّاعَةِ وَالتَّضْحِيَةِ ، وقاتلوا صُفوفاً مُتَرَاصةً امتَزَجَ فيها المهاجرون والأنصارُ ، من مَكيِّينَ ويَثْرِبيّين ، ومن قُرشيين وأَوْسيين وخَزْرَجيين ، مِنَ العربِ وَمَواليهِمْ ،

وقد صَهَرَ الإسلامُ جموعَهُمْ في وَحْدَةٍ لا انفِصَامَ لها، وأطلقَهُمْ طَاقةً واحدة لِتَحْقِيْقِ الهدفِ العظيمِ.

أما قُرَيْشٌ فقد خَرَجَتْ جموعُها مِنْ مكّةَ، بقيادات قبليَّةٍ مختلِفَةٍ، فَلِكلِّ عشيرةٍ سيّدُها، وظل أبو جهلٍ سيِّدُ بني مخزوم ينافِسُ عُتبةَ بنَ ربيعةَ سيِّد عبدِ شمسٍ وكبيرَ القَوْمِ الخارجين مِنْ مكّةَ، ويُزاحِمُهُ على مكانتِهِ، لِيتَرَأسَ على الجموعِ، وكان لِكُلٍّ من القائدين رأيٌ بعد نجاة قافلة أبي سفيان كما رأينا، وقد حلّل أبو سفيانَ شخصيَّةَ أبي جهلٍ في إصْرارِهِ على مُتابعةِ السَّيرِ إلى الحرْبِ، بقوله:

ــ «كَرِهَ عمروُ بنُ هشامٍ أَنْ يرجعَ لأنّه قد ترأس على النّاسِ!».

ولمْ تستطعْ قُرَيْشٌ أَنْ تَحْفَظَ وحدةَ قبائِلِهَا في خَوْضِ المعركةِ بِبَدْرٍ، فبنو عدي لم يُشاركوا في

الخروج؛ وَقيلَ إنّهم شاركوا ثم فارقوا الجيشَ بَعْدَ إعلانِ نَجاةِ القافِلةِ التجاريّةِ؛ وبنو زهرة جميعاً رَجعوا عند ذلك أيضاً، كما رَجَعَ بعضُ بني هاشمٍ، وقد قِيْلَ إنّهُم خرجوا إلى بَدْرٍ مُستكرَهين، مع أنّ هَوَاهُم مَعَ محمدٍ؛ وقد تبيّنَ عندَ مراجعةِ قُرَيْشٍ لِمَوْقِعِهَا قبْلَ الهجوم في بَدْرٍ أنّ وَحْدَةَ الهدفِ مِنَ المعركةِ التي تخوضُها لمْ تكنْ متوفِّرةً أيضاً، فَالْعُقَلاءُ من ذوي الرأي والحكمةِ لا يَرَوْنَ لِلقِتالِ سَبباً، ويحضُون على الرجوع والسِّلْمِ، وأبو جهلٍ — ومِنْ ورائهِ بنو مخزومٍ، وخوفُ المرتدين أن يُتّهموا بالجُبن والخوف — يُصِرُّ أولاً على أنْ تَقُومَ قُرَيْشٌ «بِتَظاهرةٍ تَعْرِضُ عَضَلاتِهَا القويّةَ، لِتُخِيْفَ المسلمين وتستردَّ هيبتَها الضائعةَ عندَ القبائلِ» وذلك بِمُتَابعةِ السَّيرِ إلى بَدْرٍ، وهو يُصِرُّ ثانياً عندَ مُرَاجعةِ المَوْقِف قَبْلَ الهجوم أَنْ يُفسِدَ على العُقلاءِ دعوتَهُم، و يقودَ قُرَيْشاً إلى الكارثَةِ!

ـ٢ـ

وثاني عواملِ النَّصْرِ الحاسِمِ للمسلمين في بَدْرٍ **رابطَةُ العقيدةِ التي تَجْمَعُ بينهُمْ**، و«إنّما المؤمنونَ إخْوةٌ» ألّف اللهُ بين قلوبِهِمْ وآخى بينَهُمْ، بهذا الدِّينِ الجديدِ الذي علَّمَهُم أنّ رابطةَ العَقِيدةِ فَوْقَ رابطةِ القُربىٰ والدّمِ، وأنّ المجتمعَ الاسلاميَّ الجديدَ لا مَكانَ فيهِ لِمُشرِك، فالمشركون أعداء المؤمنين مهما تكنْ صِلاتُ القُربى بينهم، وقد جَهِدَ بعضُ المشركين في الانضمامِ إلى جيش المسلمين في بَدْرٍ، وكان محارباً فيه جرأةٌ ونَجْدَةٌ وفرحَ أصحابُ النبيِّ حين رأوه مقبلاً على محمد يَعْرِضُ عليه أَنْ يُقاتلَ معه، وهم في قِلّةٍ وحَاجَةٍ إلى عَوْنٍ، وإنْ يكنْ مِنْ إنسانٍ واحدٍ، فسأله النبيُّ:

ــ يا هذا، أتؤمن بِالله ِورسولِهِ؟

فأجابَهُ : ــ لا !

فقال النبي :

ــ فارجِعْ ، فلنْ نستعين بِمُشْرِك !

وعاود النبيَّ مرتين لِيلحَقَ بِقواتِهِ والنبيُّ يأبى أَنْ يَسْتَنْصِرَ بِمُشْرِكٍ ، ولم يُشْرِكه حتى أَعْلَنَ إيمانَهُ ، ليظل الجيشُ الإسلاميَّ مُتماسكاً تجمعُ المحاربين فيه رابطة العقيدةِ الواحدةِ !

لمْ يكنْ لِرابطةِ الدَّم ِوالقُربى شأنٌ عند المسلمين في بَدْرٍ، وقد قاتلوا أهليَهم وذوي قُرْباهُم من المشركين أبلغَ القِتالِ : وقد شهدنا أبا حذُيفةَ يدعو أباه عُتبةَ بنَ ربيعةَ إلى البِرَازِ فيردُّهُ النبيُّ ، وَ يَعْترفُ عمرُ بنُ الخطّابِ بأنّه قَتلَ في بَدْرٍ خالَهُ العَاصَ بنَ هشامٍ المخزوميَّ ، وهو أخٌ لأبي جَهْلٍ ، وكان أبو بكرٍ

الصديق يخاطِبُ ابنَهُ عبدَ الرحمنِ وهو يحاربُ مع المشركين:

ـ يا خبيثُ، أينَ ما أخذتَ مِنْ مَالي؟

فيردُّ عبدُ الرحمنِ على أَبيهِ بِأَنَّه اشترى بِهِ سِلاحاً وفَرَساً وسيفاً صَارِماً لِيَقْتُلَ بِهِ العَجَائِزَ الضَّالينَ، تعريضاً بأبيهِ:

لم يَبْقَ غيرُ شِكّةٍ ويَعْبُوبْ
وصارِمٌ يَقْتُل ضُلاّلَ الشِّيبْ

وكان مُصعبُ بنُ عُمِيرٍ في المسلمين وأخوه زُرارَةُ في المشركين، فلما أسِرَ قال مُصعَبٌ لِآسِر أخيه:

ـ شُدَّ يديك به، فإن أمَّه ذاتُ غنىومال، لعلّها تفديه بالكثير!

فيقول زُرارةُ بنُ عمير لأخيه:

ـ يا أخي، هذه وَصَاتُكَ بي!

فيجيبُهُ مُصعبٌ:

ـ لستُ أخاً لِمُشرِكٍ، إنه أخي دونَك!

وقد خرج عبدُ اللهِ بنُ سُهيلٍ إلى نَفيرِ بَدْرٍ مع المشركين، وحَمَله أبوه سهيلُ بنُ عَمْرٍو في نَفَقَتِهِ، وهو واحدٌ من المسلمين الذين حاولتْ قُرَيْشٌ أَنْ تَفْتِنَهُمْ عَنْ دِينِهم، وَظَنَّ سُهيلٌ أَنَّ وَلَده قد رَجَعَ إلى دينه، فلما التقى المسلمون والمشركون بِبَدْرٍ، وتَرَاءى الجمعانِ، انحازَ عبدُ اللهِ إلى المسلمين، حتّى جاءَ النبيَّ قبلَ القِتالِ، فَشَهِدَ بَدْراً مُسلماً، وهو ابنُ سَبْعٍ وعشرينَ سنةً، فغاظ ذلك أباه أكبرَ الغيظِ!

لقد أقامَ الإسلامُ أخوّةَ المؤمنين على أسَاس العقيدَةِ والدّينِ، دونَ الدَّمِ والقُربي، فَانْدَفَعَ أبطالُهُ يَفْتِكُونَ بالمشركين فتكاً، ولمْ يَعْبَأْ حمزةُ أو عليّ أو غيرُهما بِمَنْ يَقْتُلُونَ مِنَ المشركين، وكلُّهم مِنْ أبناءِ

العُمومة والقرابة القريبة أو البعيدة؛ هذا في حين أنّ قُرَيْشاً شَلَّ مِن انطلاقةِ قوتِهَا إشْفَاقُها على المكيين المهاجرين، وبينهم عددٌ مِنَ الأَبْناءِ وَالإِخْوةِ، وقد تَوَاصَى المشركون قبلَ المعركةِ أَنْ يُبقوا على القُرَشِيّيْنَ، ويُثخنوا القَتْلَ في أهلِ يَثْرِبَ!

ـ ٣ ـ

وثالثُ عواملِ النَّصْرِ الإسلاميِّ في بَدْرٍ **رُوْحُ الاستشهادِ والقِتالِ باستماتَةٍ عندَ المسلمين:** فأصحابُ محمدٍ مؤمنون حَرِيصُون على الشهادةِ والموتِ حرصَ المشركين على البقاءِ والحياةِ، حتّى الصِّغَار من الفتيان المؤمنين كانوا يَتَشَوَّقُونَ إلى الشَهادةِ، وقد بكى عُمِيرٌ أخو سعدِ بنِ أبي وقّاص ٍوهو ابنُ ستَ عَشْرةَ سنةً عندما استصغره النبيُّ، وقد رآه أخوه يتوارى خلف الصفوف عند عَرْض الخارجين إلى بَدْرٍ على النبيِّ فقال له:

ــ مالك يا عمير؟ مالك يا أخي؟

ــ إنّي أَخَافُ أَنْ يراني رسولُ اللهِ فيستصغرَني فيردَّني، وأنا أحِبُّ الخروجَ لعلَّ اللهَ يرزقُني الشهادةَ!

وأجازه النبيُّ تشجيعاً وإشفاقاً أَنْ يَكْبُتَ طموحَهُ، وقال سعدٌ: فكنتُ أَعْقِدُ له حمائلَ سيفِهِ مِنْ صغرِهِ. (أي يربطها عقداً لِيُقَصّرَ مِنْ طولها) وهو أَحَدُ الشهداءِ الأربعةَ عَشَرَ في معركةِ بَدْرٍ.

أمّا الشيوخُ مِنْ أَصْحابِ النبيِّ فكانوا يُلحُّون على أبنائهم أَنْ يخرجوا لِلقِتالِ في جيشِ النبيِّ دونَهُم: فهذا خيثمةُ بنُ الحارثِ الأوسيِّ يَسْأَلُ ابنهُ سعداً أَنْ يُؤْثِرَهُ بالخروجِ إلى بَدْرٍ دونَهُ، ويقولُ له:

ــ لا بُدَّ لِأَحدنا مِنْ أَنْ يُقِيمَ، فآثِرْني بالخروجِ، وأقم أَنْتَ مع نسائِكَ!

وأبى سعدُ بنُ خيثمةَ ذلك وقال لِأَبيهِ:

ـــ لو كان شيءٌ غيرُ الجنَّةِ آثرتُك به، فإني أرجو الشهادةَ في خروجي هذا!

وألحَّ كُلٌ منهما على الخروجِ دونَ الآخر، ولمْ يجدا آخرَ الأمرِ بُداً مِنَ الاقِتْراعِ على الخروجِ بينهما، فَخَرَجَ سهمُ سَعْدٍ، فخرج مع النبيِّ إلى بَدْرٍ، وَاسْتُشْهِدَ في معركَتِهَا.

ولمّا وقفَ النبيُّ في بَدْرٍ يحرّضُ أصحابَهُ على الثَّبَاتِ والصَّبْرِ و يُعلنُ لهُمْ أَنَّ لِلشهيدِ الجنةَ، صاحَ عُميرُ بنُ الحُمامِ، وفي يده تَمْراتٌ يأكلُهَا:

ـــ أفما بيني و بين أَنْ أَدْخُلَ الجنةَ إلاّ أَنْ يقتُلني هؤلاء!

ثُمَّ قَذَفَ التمراتِ مِنْ يَدِهِ، واستلَّ سيفَهُ، فقاتلَ المشركين مُسْتَمِيْتاً راغِباً في الشَّهادةِ والجنةِ حتّى قُتِلَ!

بهذه الروحِ مِنَ الاقْدامِ على الموتِ، والشَّوْقِ إلى الجنةِ، خَاضَ أصحابُ محمدٍ معركةَ بَدْرٍ، وراحُوا يحصِدُونَ المشركين حَصْداً، في حين أَنّ قُرَيْشاً كانتْ حريصَةً على الحياةِ، وقد لاذ الفُرسانُ منهُم وَمَنْ أَصَابَ ظَهْراً بالفِرارَ، وَمَنْ لمْ يَجِدْ إلى الفِرارِ سبيلاً كان يُؤْثِرُ أَنْ يُسْتأسرَ، لِيَنْجُوَ مِنَ القَتلِ، وحكى عبدُ الرحمنِ بنُ عَوْفٍ أَنَّه مَّر بِأُمَيَّةَ بنِ خلفٍ وهو واقفٌ مع ابنِهِ عليِّ بنِ أمَيَّةَ، وكان صديقاً له في الجاهلية، فدعاه أمَيّةُ أَنْ يَأْسِرَهُمَا، وقال له:

— ما رأيْتُ كاليومِ فَتْكاً وَقَتْلاً، أَمَا لكم يا أصحابَ محمدٍ حاجةٌ في اللَّبَنِ، فَمَنْ أَسَرَني افتَدِيْتُ منه بإبلٍ كثيرةِ اللبَنِ!

فأمسكَ ابنُ عَوْفٍ بِيَدِ الأَسِيْرَيْنِ المُسْتَسْلِمَيْنِ لِيَقُوْدَهُمَا حين رآه بِلالٌ وأبصرَ أمَيَّةَ بنَ خلفٍ،

وكان يتولّى تَعْذِيبَهُ بمكّةَ، فأثارَ الأنصارَ عليه فأقْبَلُوْا لِلانْتِقَام مِنْ رأسِ الكُفْرِ، فهَبَرُوْهُ بالسّيوفِ هَبْراً!

وكان عددُ أَسْرَى المشركينَ في بَدْرٍ سَبْعِيْنَ، وكان المسلمُ الواحدُ يَأْسِرُ الأثنين والثلاثة ويقرنهم بالحِبالِ، ويسوقُهُم أمامَهُ أذِلّةً كالأنعامِ، وَفَرَّ مِنَ المشركين أكثرُ مِنْ ثمانمائة مِنَ الرِّجالِ، هَزِيمةً مِنَ الموتِ، وقد رَكِبَهُمُ الفَزَعُ وَالرّعْبُ مِنْ صمودِ أصحابِ محمدٍ وَاسْتِمَاتَتِهِم في القِتالِ، بِضَراوةٍ لَمْ يَشْهَدُوا لها مثيلاً.

وقد وَصَفَ بعضُ المُشركين أصحابَ محمدٍ قَبْلِ المعركةِ فقال:

ــ «رأيتُ قوماً لا يُريدونَ أَنْ يَؤوْبُوا إلى أهْلِيهِمْ، قوماً مُسْتَمِيْتِيْنَ، ليست لهم مَنَعةٌ ولا ملجأ إلاّ سيوفُهُمْ!

وهكذا حَمَتِ السيوفُ المسلمين عندما استَمَاتُوا، فَوُهِبَتْ لَهُمُ الحياةُ، وَمَنَحَتْهُمُ النَّصْرَ، وقديماً قالوا: اطْلُبْ الموتَ تُوهَبْ لكَ الحياةُ.

— ٤ —

ورابعُ عواملِ النَّصْرِ الإسلاميِّ الحاسِمِ في بَدْرٍ عبقريةُ القيادةِ التي كان لها الفضلُ الأكبرُ في انتصارِ المسلمين وإيقاعِ الهزيمةِ بعدوِّهِمْ، برغم التفاوتِ الكبيرِ في عَدَدِ الرِّجالِ والسلاحِ والخيلِ.

والحديثُ عن عَبْقَرِيَّةِ محمدٍ القائدِ، كما تجلّتْ في معركةِ بَدْرٍ، يتطلّبُ وَقْفَةً طويلةً لِتحليلِ مَلامِحِهَا البارزةِ مِنْ خلالِ شَخْصِيّةِ القائدِ العسكريَّةِ وتخطيطِهِ المُذهلِ الكاملِ لِلمعركةِ وَإِدارةِ عَمَلِيّاتِهَا وسَيْرِ وقائعِهَا.

فأَمّا شخصيّةُ النبيِّ القائدِ فهي الشخصيّةُ

الإنسانيَّةُ التي جمعتْ ضُروبَ الكَمَالِ في أَخْلاقِهَا وصِلاتِهَا بالآخرين وبما تمتلِكُهُ مِنْ طَاقاتٍ نفسيّةٍ مُتوهَجةٍ بِالإيمانِ وَالحماسَةِ، وَقَادِرةٍ على التَّأْثِيْرِ وَالإِيْحَاءِ وَالهَيْمَنَةِ، وَبَثِّ رُوحِ الطّموحِ وَالانْدِفاعِ وَالاسْتِشْهَادِ فِيْمَنْ حولَها مِنَ المؤمنين والأَتباعِ، وقد ظَهَرَ أثرُ شخصيَّةِ القائدِ في إِحْرازِ النّصْرِ على المُشْرِكين في بَدْرٍ ظُهُوْراً بيناً، بِكُلِّ ما تمتازُ بِهِ شخصيّةُ النبيِّ الإنسانيّةُ مِنَ الصِّفَاتِ: وَأَوّلُهَا رُوحُ التواضعِ والديموقراطية والمساواةِ في نفسِهِ: فالقائدُ العامُّ لا يُؤْثِرُ نفسَهُ بشيءٍ، وَمُنْذُ خروجه مِنَ المدينةِ وهو أَحَدُ ثلاثةٍ يتناوَبُوْنَ الركوبَ على بعيرٍ واحدٍ، مِثْلُ أيّ واحدٍ مِنْ أصحابِهِ الخارجين إلى بَدْرٍ، وعندما سألَهُ زميلاهُ أَنْ يُؤْثِرَاهُ بِالركوبِ عندَ إِحْدَى العَقَبَاتِ في الطَّرِيقِ أبَى وقالَ لهما:

ـ ما أَنْتُمَا بِأَقْوَى على المَشْيِ مِنّي، وما أنا بِأَغْنَى عَنِ الأَجْرِ منكما!

وكان القائدُ العَامُّ يستفيدُ مِنْ آراءِ أصحابِهِ وَيَسْتَشِيرَهُمْ في كُلِّ عمليةٍ مِنَ العَمَلِيّاتِ، ولا يَأْنَفُ مِنَ الأَخْذِ برأيِ واحدٍ مِنْ أتباعِهِ. شأنُهُ حين استمعَ إلى مشورةِ الحبابِ بَنِ المُنذرِ في اختيارِ المَيْدانِ وَاحْتِكارِ الماءِ وَبناءِ الحوضِ، وكان الحبابُ حينَ شَهِدَ بَدْراً شاباً في الثالثةِ والثلاثينَ مِنْ عُمُرِهِ، ولكنَّهُ ذو خِبْرةٍ ومَعْرِفَةٍ بِالمكانِ وَالآبارِ وَالمياهِ، والنبيُّ في بَدْرٍ يُعاني تَجْرِبَتَهُ الأولى في إدارةِ المَعارِكِ الكبيرةِ، وَاسْتِشَارَتُهُ لِأَصْحابِهِ في التخطيطِ لِلمعركةِ هي دَليلُ تَواضعِهِ وعُمقِ روحِ الديموقراطيةِ في نفسِهِ، وهي أيضاً دليلُ رَجاحةِ العَقْلِ فَمِثْلُ هذهِ الاستشارةِ مِنْ آياتِ حُسْنِ القيادةِ وهي لا

تَقْدَحُ في قدرةِ القائدِ العظيم على رسمِ الخُطَطِ وَابْتِكارِ الأَسَاليبِ.

ومِنْ دَلائلِ ديموقراطية النبيِّ ومساواتِهِ بينه و بين أَصْحابِهِ في المعركةِ أَنَّهُ كان يحارِبُ في طليعةِ رِجالِهِ حين تَحْتَدِمُ نارُ الحربِ، لِيَبُثَّ في قلوبِهِم مَزِيْداً مِنَ الثّباتِ والقُوّةِ والجُرْأَةِ، وهو يُقدّمُ لهم القدوةَ العَمِلِيّةَ مِنْ نفسِهِ، وكان عليٌّ وهو أَشْجعُ الأ بطال في بَدْرٍ يقول:

ــ «لمّا أَنْ كان يومُ بَدْرٍ، وحَضَرَ النّاسُ، اتَّقيْنَا برسولِ اللهِ فكان مِنْ أَشَدِّ النّاسِ بَأْساً، وما كان مِنّا أَحَدٌ أقربَ إلى العدوِّ منه!».

هذه شخصيَّةُ القائدِ العبقريِّ العظيمِ الذي يُشْعِرُ جُنْدَهُ أَنَّهُ واحدٌ منهم فهو معهم في الطليعة، وهو يستشيرهم في كل أمر، ولا يستكرههم على ما لا

يُريدون، ليسيروا وراءه بِرِضًى وَقَناعَةٍ وَإيمان: سألهم قبلَ الدُّخولِ في المعركةِ لِيَرى إجْماعَهُم على خَوْضِهَا، ولمْ يَرْضَ أنْ يُعلنَ المهاجرون الموافقةَ مِنْ غير أَنْ يُجاهِرَ الأنصارُ أيضاً بها، دون ضَغْطٍ أَوْ إكْراهٍ، وعندما تَرَدَّدَ فَرِيقٌ مِنْ أَصْحَابِهِ وَكَرِهُوا القِتالِ، وقد رَأَوْا كثرةَ قُرَيْشٍ الكَاثِرَةَ في العَدَدِ والسِّلاحِ والتَّجْهِيزِ، وخافُوا سوءَ العَاقِبَةِ، لمْ يَغْضَبِ القائدُ العَامُّ، وَرَاحَ يُقنعُهم وهم يُجادِلُونَهُ. لِيُبيِّنَ لهم أَنَّ النَّصْرَ بِالإيمانِ والثَّبَاتِ وَالإخْلاصِ، وَليس بِالعَدَدِ والسِّلاحِ الكثيرِ، وَأَنَّ اللهَ قَدْ وَعَدَ المؤمنينَ النَّصْرَ في حَرْبِهِم، بعد أَنْ فاتَتْهُمُ القافِلَةُ وغنائمها، حتّى اقتنعَ الفريقُ الكارِهُ لِلقِتالِ، وخاضَ محمدٌ المعركةَ بِجميعِ أصحابِهِ، كَالبُنْيَانِ المَرْصوصِ، ولمْ يخرجْ عَنْ إجْماعِهِم واحدٌ مِنَ المؤمِنين.

هذا الأسلوبُ القياديُّ في الشُّورَى والديموقراطية والتواضعِ كان يُقابلُهُ أسْلوبٌ مُخَالِفٌ ومُنَاقِضٌ في الطَّرَفِ الآخرِ: فقد كان الغرورُ والاستبدادُ بالرأيِّ وَالاعتدادُ بِالريَاسَةِ مِنْ أبرزِ مَظَاهِرِ القيادةِ في الجيشِ المكيِّ، فقد خرجَ فيه قَوْمٌ كارِهُوْنَ لِلخروجِ، واستغلَّ أبو جَهْلٍ كُلَّ وَسِيلَةٍ لِإرْهابِ المُسَالمين مِنْ قُرَيْشٍ والدّاعينَ إلى الرجوعِ عَنِ القِتالِ، بَعْدَ أَنِ انهَارَتْ أَسْبابُهُ المُوْجِبَةُ له بِنَجاةِ القافلةِ التجاريَّةِ، وقبولِ حُلفاءِ ابنِ الحضرميِّ أَنْ يَتَحَمَّلُوا دِيتَهُ والتعويضاتِ عَمّا فَقَدَتْهُ قافلتُهُ، وهكذا سَاقَ أبو جَهْلٍ جموعَ قُرَيْشٍ وهي كارهةٌ إلى الكارثةِ بالإرْهَابِ والاستبدادِ، وَاتِّهامِ العُقلاءِ بالجُبْنِ والخوفِ والحرصِ على حياةِ ذَوي قُرْبَاهُمْ من المهاجرين في جيشِ محمدٍ! وأتاحَ أبو جَهْلٍ بِحُمْقِهِ وغرورِهِ

واستبدادِهِ لِلمسلمين أَنْ يَخُوضُوا حَرْبَاً دِفَاعِيَّةً مَفْروضَةً عليهم في مُوَاجَهةِ عدوٍّ مُهَاجِمٍ مُعْتَدٍ مغرورٍ!

ومِنَ السَّذَاجةِ دونَ رَيْبٍ أَنْ نَعْمَدَ إلى تحليلٍ مُقارنٍ لِشخصيتي القائدين العامَّين لِطَرفي القِتالِ في بَدْرٍ، لِإِبْرَازِ عبقرية شخصية النبيِّ القائد، وَمِنَ الخيرِ أَنْ نَنْتَقِلَ إلى الحديثِ عَنْ عبقريةِ التخطيطِ لِلمعركةِ والإدارةِ لِعَمَليّاتِهَا بِوَعيٍ ومهارةٍ، لما كان لِنَجاحِ الخطَّةِ وإدارةِ عملياتها مِنْ أَثَرٍ حاسِمٍ في تحقيقِ النَّصْرِ الإسلاميِّ في بَدْرٍ.

كانتْ عِنايةُ النبيِّ بالتخطيطِ لِلمعركةِ شامِلةً جميعَ جُزْئِيَّاتِهَا، حتّى لمْ يكنْ عندَ تنفيذِ العملياتِ شيءٌ مُرتجلٌ لمْ يحسبِ القائدُ العبقريُّ حِسَابَه مِنْ قَبْلُ: فقد اهتمّ أولاً بإيفادِ الدَّوْريّاتِ الاسْتِطلاعيَّةِ الكثيرةِ لِتنقُلَ إليه الصورةَ الحقيقةَ لِلعدوِّ: في عَدَدِ

قُوَاتِهِ وتسلِحُّها واستعدادِهَا، وفي حركتِهَا وتَنَقّلا تِهَا، وفي نَوَايا قادَتِهَا وَخططِهِم، وَاسْتَعانَ في عمليّاتِ الاستطلاعِ بأَوْثقِ أصحابِهِ وأهليه، واستعان أيضاً بِفَرَاسَتِهِ الصَّادِقَةِ وفطنتِهِ الإنسانيَّةِ العميقةِ في الاستدلالِ والاستنباطِ لِيتكوَّنَ عندَهُ تَصَوُّرٌ صحيحٌ عَنْ عدوِّهِ: وبذلك عرفَ النبيُّ صدقَ الغُلامين المخطوفين من سُقاةِ قُرَيْشٍ، وَقَدَّرَ عددَ جيشِ المشركين مِنْ عَدَدِ الجُزورِ التي تُنْحَرُ كُلَّ يومٍ لإطْعَامِهِ، وَاسْتَنْتَجَ نوعيةَ المحاربين فيه مِنْ سؤالِهِ عَنْ أشرافِ القومِ لتكوينِ صورةٍ عن قدراتهم القتاليَّةِ، مِنْ خلالِ هوياتهم وانتماءاتهم.

وفي ضوءِ الصورةِ العامة التي تكونَتْ لدى النبيِّ عَنْ جيشِ قُرَيْشٍ قبلَ المعركةِ أعدَّ النبيُّ خطَّتَهُ فلمْ يُهمِلْ شيئاً: اختارَ مَيْدانَ القِتالِ وسَبَقَ خَصْمَهُ إلى

احتكارِ مَوْرِدِ الماءِ، وَتَزَوَّدَ منه بما يكفي المسلمين في الحَوْضِ الذي بنوه، وَطَمَّ مَوَارِدَ المياهِ الأخرى في الآبارِ، لِيَمْنَعَ الماءَ عن عدوِّهِ، والمعركةُ تجري في يومٍ حارٍ وَتَحْتَ شَمْسٍ مُحْرِقَةٍ، وَأَقامَ العريشَ مَقَرّاً لِقيادتِهِ، واختارَ لِحِراستِهِ نَفَراً مِنْ أَشْجَعِ الأنصارِ، وَأَوْقَفَ الرِّكابَ إلى جانبِ العريشِ، لِتَسْهِيْلِ مُهِمَّةِ الانسحابِ وَحِمَايةِ القيادةِ من السُّقُوطِ في يدِ العدوِّ في حالة تغلُّبه، وأتاحَ لِلمحاربين أَنْ يَرْتاحُوا ليلةَ المعركةِ، فناموا نوماً عميقاً، ثِقَةً بِسَهَرِ القيادةِ والحراسةِ والدورياتِ الاستطلاعيَّةِ الليليَّةِ. ولمْ يخافوا أَنْ يُفاجَأوا بهجومٍ ليليٍّ مُباغِتٍ، وبعدَ صلاةِ الفَجْرِ راح النبيُّ يُنظِّمُ أصحابَهُ صفوفاً متراصَّةً، ويحدِّدُ لهم مَواقعَهُم، لِيُحارِبُوا صفوفاً متماسِكَةً، وكان العربُ لا يعرفون القِتالَ بِأسْلوبِ الصفوفِ،

بَلْ يقاتلون جَماعاتٍ مُتفَرِّقةً حسب روابطِهَا القبليَّةِ، وكان تَطْبيقُ هذا الأسْلوبِ الجديدِ في القِتالِ ـ فيما يرى بعضُ الباحثين العسكريين اليوم ـ عاملاً مُهِمّاً مِنْ عوامِلِ انتصار محمدٍ في بَدْرٍ، وتاريخُ المعارِكِ الحربيَّةِ يُحَدِّثُنَا بِأَنَّ سِرَّ انتصارِ القادةِ العظماءِ فيها هو اهْتِدَاؤهُمْ إلى تطبيق أساليبَ جديدةٍ في القِتالِ يُفاجئون بها خصومَهُم.

وقد اهتَمَّ محمدٌ بتنظيمِ الصفوفِ بِنفسِهِ، وتعدِيْلِهَا، وتحدِيْدِ مواقفِ أَصْحَابِهِ فيها، وقد راعى اتجاهَ الشَّمْسِ في مواقعِ أصحابِهِ، فاختارَ لَهُمْ أَنْ يُعْطُوهَا ظُهُورَهُم، وَتَرَكَ لِلمشركين أَنْ يَسْتَقْبِلوهَا بوجوهِهِمْ، واختارَ النبيُّ الأَكْفِياءَ مِنْ محاربيهِ للمُهِمَّاتِ الأَساسيَّةِ: فَعقَدَ لَهُمُ الرَّاياتِ والأعلامَ، وَاسْتَعْمَلَ على المُقدِّمَةِ والمَيْمَنَةِ وَالمَيْسَرةِ وَالسَّاقَةِ

أَكْفَأَ الرِّجالِ، وَأَذَاعَ في أصحابِهِ شِعَارَ المَعْرَكةِ، لِيَتعارَفُوا بِهِ عِنْدَ احْتِدَامِهَا، وأمرهم أَلاّ يَبْدَأوا بالْهُجُومِ، وَأَلاّ يَسُلُّوا سيوفَهُمْ إلاّ بَعْدَ صُدورِ أمرٍ منه، وَأَنْ يَكْتَفُوا بالنِّبالِ قَبْلَ ذلك، لِصَدِّ المُهَاجِمينَ من قُرَيْشٍ إِذا أحاطتْ بِهِم، وبهذه الخطةِ أرادَ النبيُّ أَنْ يَسْتَنْزِفَ قوى المشركين، ويُرِيَهُم أَنّهم مُعْتَدُونَ في هجومِهِم. وأَنَّ أصحابَ محمدٍ يخوضون معركةً دِفاعيَّةً عن بقائِهِم ودِينِهِمْ وَدَعْوَتِهِمْ، وَيُشِيْرُ الواقدِيُّ في مَغَازِيهِ إلى أَنّ النبيَّ أَوْفَدَ عمرَ بنَ الخطّابِ إلى قُرَيْشٍ صباحَ يومِ بَدْرٍ لِيَعرِضَ عليها أَنْ ترجعَ إلى مكّةَ بِغيرِ قِتالٍ، فأبى أبو جَهْلٍ عَرْضَ المسلمين، وَلَئِنْ صَحَّ ما يَنْقُلُ الواقديُّ فإِنَّ محمداً القائدَ لمْ يلجأ بجيشِهِ إلى القِتالِ إلاّ بعدَ اسْتِنْزَافِ الوسائل السلميّةِ مع العدوّ، وقد أكّد بِذلك لِلعقلاءِ مِنْ

قُرَيْشٍ أَنَّهُ ليس حريصاً على سَفْكِ الدّماء، وَفَتَّ بذلك مِنْ عزيمةِ كثيرٍ مِنَ المتردّدينَ الكَارِهِيْنَ لِلقِتالِ في جيشِ مكّةَ فلمّا قاتلوا بعد ذلك مُسْتَكرَهِيْنَ قاتلوا بِغيرِ حَماسَةٍ وحميّةٍ واندفاعٍ، وعندما اسْتَبَدَّ العطشُ يومَ بَدْرٍ ببعضِ المشركين، وهجَمُوا على حوضِ المسلمين لِيَشْرَبُوا لَمْ يمنعْهُم النبيُّ، فشرِبُوا حتى ارتووا، وعادوا إلى المَيدانِ وقد انكسرتْ حِدَّةُ شوكتِهِم لِقتالِ المسلمين، فخاضُوا المعركةَ بغيرَ حافزٍ من العطشِ والانتقامِ، ولمْ يَصْدُقُوا القِتالِ، فَحَصَدَتْهُم جميعاً — إلاّ واحداً منهم — سيوفُ المسلمين، وهذا هو في رأيي سرُّ سماحِ النبيِّ لهم بِالشُّربِ، بَعْدَ أَنْ خطّطَ أَنْ يَحْتَكِرَ المسلمون الماء ويمنعوا مَوَارِدَهُ عَنِ المشركين.

وهكذا خطّطَ النبيُّ لِلمعركةِ بعبقرِيَّةٍ مُدهِشَةٍ،

وقادَ عمليَّاتِهَا بمَهَارةٍ كاملةٍ، وكان يعتمدُ في حُسْنِ التطبيقِ لِلخططِ المرسومةِ على عُنْصرِ الحركةِ والإشرافِ الفِعْلِيِّ منه على سَيْرِ الوقائعِ: فكان يَتَنَقَّلُ بينَ الصفوفِ وَمَقَرِّ القيادةِ في العريشِ، و يطوفُ على أصحابِهِ، مُحرِّضاً ومُشَجِّعاً ومُفَجِّراً في النفوسِ المُؤمِنَةِ أكبرَ الطاقاتِ للصّمودِ والطاعةِ والاستشهادِ.

ـ ٥ ـ

وآخرُ ما نعرِضُ له مِنْ عَواملِ النَّصْرِ الإسلاميِّ في بَدْرٍ تَوَافرَ القوى المَعْنويَّةِ لدى المسلمين، مُتَمثِّلَةً بإيمانِهِم برسالةِ السَّماءِ التي حَمَلَهَا محمدٌ إلى النّاسِ، لِيُخرجَهُم مِنْ ظُلْمةِ الضلالةِ والوثنيَّةِ إلى نُوْرِ التَّوْحِيدِ، وهذا هو العاملُ الروحيُّ الذي له الفضلُ الأكبرُ في تحقيقِ مُعْجزةِ النّصرِ في بَدْرٍ، وفي معاركِ

الإسلامِ معَ الشركِ؛ ووراءَ هذا العاملِ الروحيِّ شخصيّةُ الرسولِ العربي نفسِهِ، و يقولُ غوستاف لوبون في كتابه «روح الجندي»:

«نحن لا نقودُ جنودَنَا بِالقُوَّةِ أو الخوفِ، بِلْ بِسَيْطَرةِ العاملِ الروحيِّ الذي نَتَّصِفُ بِهِ» وقد أشادَ كبارُ القوّادِ والفاتحين بأثرِ القوةِ المعنويّةِ في صُمودِ الجنودِ، فكان نابليون يُقدِّرُهَا حقَّ قدرِهَا و يقول «إنّ نسبةَ القوةِ المعنويَّةِ إلى الكثرةِ العدديَّةِ كَنِسْبَةِ ثلاثةٍ إلى واحدٍ» والنبيُّ يَعْتَمدُ على القُوّةِ المعنويّةِ كلَّ الاعتمادِ ويراها مَدَداً مِنَ السَّماءِ تَحْمِلُه الملائكةُ إلى المؤمنين، فتُثَبِّتُ أقدامَهم، وتُقَوِّي عزائمَهُم، وتُبشِّرُهُم بالنَّصرِ القريبِ، ولهذا كان النبيُّ في بَدْرٍ دائمِ الضَّرَاعةِ إلى اللهِ والاسْتِغَاثةِ به، لِيُحقِّقَ له وَعْدَهُ، و يُمِدَّه بِتوفيقِهِ، و ينصرَ هذه القِلّة

المؤمنةَ المستضعفةَ على الكثرةِ القويّةِ المُشْرِكةِ، فإذا انتهى النبيُّ من تَضَرُّعِهِ وابتهالِهِ إلى اللهِ، يُقبل على أصحابِهِ لِيُبَشِّرَهُم بنصرِ اللهِ.

وفي سُورةِ الأنفالِ ـ وهي سورةُ بَدْرٍ كما يسمّيها ابنُ عباسٍ ـ يعدّدُ اللهُ النِّعَمَ التي أفاء بها على المسلمين يومَ بَدْرٍ:

أ ـ فهو الذي استجاب لهم عندما استغاثوا ربَّهم، وأمدَّهم بألفٍ من الملائكة ـ بعددِ جيشِ عدوِّهِمْ ـ فقوّى عزائمَهُمْ، وبشَّرَهُمْ بالنَّصْرِ فَطَمْأَنَ قلوبَهُمْ.

ب ـ وهو الذي أعانَهُمْ ليلةَ المعركةِ على النَّوْمِ، فَغَشَّاهُمُ النُّعاسُ، لِكي يستيقظوا صباحَ المعركةِ مُرتاحين، فينشطوا بِهِمَّةٍ إلى مُلاقاةِ عدوِّهِمْ.

جـ ـ وهو الذي أعانَهُمْ بإمْطارِ السماءِ عليهم قبلَ

المعركةِ ليغتسلوا و يتطهّروا، و يثبّتَ أقدامَهم
فوقَ الرمالِ اللّينةِ التي لبَّدَهَا المطرُ، ولولاهُ
لَكانتْ تَسُوْخُ فيها الأقدامُ.

د ــ وهو الذي أَلْقَى في قلوبِ المشركين الرُّعْبَ
والفزعَ والهلعَ، حتّى يَجْبُنُوْا، فيتمكّن المسلمونَ
منهم، وَشَدَّ عزائِمَ المسلمين فجعَلَهُم يَرَوْنَ
المشركين على كثرَتِهِم قِلّةً لا تُغني، لِكَيلا
يَهَابُوهُمْ.

وقد بَلَغَ من إيمانِ المسلمين بَعْدَ معجزة انتصارِهِم
في بَدْرٍ أَنْ يعتقدوا أَنّ الملائكةَ قاتلتْ مع أصحابِ
النبيِّ قِتالاً فِعْلِيّاً، وَأَنّ بعضَهُم كان يَسْمَعُ حمحمةَ
خُيولِ الملائكةِ مِنْ بعضِ السُّحُبِ..

وقد أصابَ المشركين الذعرُ والرعبُ حَقّاً منذ
ليلةِ المعركةِ، وَقَبْلَ أَنْ يَخُوضُوهَا، فلم يناموا خَوْفاً

مِنْ أَنْ يُبَاغِتَهُمُ المسلمون بهجومٍ ليلي مُفاجِىءٍ، وَأَفْزَعَتْهُم كلماتُ مَنْ أَرْسَلُوهُم لِاسْتَطِلاعِ جيشِ المسلمين وتقديرِ عددِهِم وقُوَّتِهِم، «فأصحابُ محمدٍ جماعةٌ مستميتةٌ لا ملجأَ لها إلاّ سيوفُها، وجوهٌ كوجوهِ الحيّاتِ لِرجالٍ خُرْسٍ لا يتكلّمون، و يتلمّظون تلمُّظ الأفاعي.. لا يُقْتَلُ منهم أَحَدٌ حتّى يَقْتُلَ خَصْمَهُ..».

هذه الصورةُ المُرعبةُ لجيشِ المسلمين تُغني عن الإطالةِ في التَّدْليلِ على تَوَافرِ القوى المعنويَّةِ لدى أصحابِ محمدٍ، فَاكْتَسَحُوا في المعركةِ جُموعَ قُرَيْشٍ اكتساحاً، وراحتْ سيوفُهم تَذْبحَ المشركين وكأنَّهُم (نياقٌ مُسَمَّنةٌ مربوطةٌ ومُعَدَّة لِلنَّحْرِ) كما وَصَفَهم واحدٌ من أصحابِ محمدٍ، عندما انْهَالَتْ عليهِم التهاني بالنَّصْرِ بَعْدِ المعركةِ:

ــ ما الذي تُهَنئوننا به؟ فوالله ما لقينا إلاّ عجائزَ صُلْعاً كالبُدْنِ (النياق السمينة) المُعَقَّلةِ (المربوطة) فنحرناها!

والحق أن المسلمين لمْ ينحروا غيرَ سبعينَ من رِجالِ قُرَيْشٍ، ولم يأسروا غيرَ سبعينَ آخرين، فأين بقيةُ الرِجالِ الألفِ؟

لقد ولّوا الأدبارَ مُنْهَزِمِيْنَ، وقد هَدَّ الرعبُ قُلوبَهُمْ، وعددُهُمْ يَزِيدُ على الثمانمائة، وراحُوا يُلْقُونَ دُرُوعَهُم وأسلحتَهُمْ، الكثيرةَ لِيتخفّفوا مِنْ ثقِلَها، ويتمكنوا من النجاةِ بأنفسِهِم، وعارُ هزيمتِهِم أمامَ القلَّةِ القليلةِ يُطاردُهُم، فيزيدُهُم فَزَعاً ورُعْباً.

* * *

تلك هي أهَمُّ العوامِلِ التي صَنَعَتْ مُعْجزةَ النصر

الاسلاميِّ في بَدْرٍ، وجعلَتِ الهزيمةَ الساحِقَةَ من نصيبِ قُرَيْشٍ، وكَثْرتِهَا العدديّةِ الموفورةِ السِّلاحِ، لِأنَّها أَسْلَمَتْ قيادَهَا إلى أبي جَهْلٍ دونَ ذوي الرأي من عُقلائها، فقَادَهَا بِغُرورِهِ وحُمقِهِ إلى حَتْفِهَا، وخَاضَ بها المَعْرَكة بِاسْتخفافٍ وَارْتجالٍ وَاسْتبدادٍ:

استخفَّ بجيشِ محمدٍ وَظَنَّ أَنَّهُ قادِرٌ على سَحْقِهِ بيُسْرٍ وسهولةٍ، ولمْ يُخططْ لِلمَعْركةِ فكانتْ كُلُّ العَمَلِيَّاتِ في الجانبِ القرشيِّ مُرتجلةً، استهانة بالمسلمين وقُدرتِهِمُ القِتاليّةِ، ومنذ الساعةِ الأولى التي سَقَطَ فيها أولئك المبارزون السادةُ الأشرافُ مِنْ بني عبدِ شمسٍ انهارَتْ القوى المعنويّةُ لِلجيشِ القرشيِّ، وَارتفعَتْ معنوياتُ أصحابِ محمدٍ، وَأَخَذَتْ وقائعُ المعركةِ تَتَوالى في المَسَارِ الذي خَطَّتْهُ عبقريَّةُ قائدِهِم إلى النصرِ العظيمِ.

أثر المعركة في انطلاقة المدّ العربي والإسلامي

معركةُ بَدْرٍ بما لها من أثرٍ كبيرٍ في تقريرِ مستقبلِ الدعوةِ الاسلاميةِ تُعتبرُ أهمَّ وقعةٍ حاسمةٍ في تاريخ الإسلامِ، وكان النبيُّ خيرَ مَنْ يُدركُ خَطرَهَا وأهميّتها وهو يُناشِدُ ربَّه النصرَ الموعودَ، فلو هلكتْ هذه الجماعةُ القليلةُ المؤمنةُ في بَدْرٍ لم يُعبَدِ اللهُ في الأرضِ، ولم تقمْ لِلاسلامِ قائمةٌ بَعْدَ ذلك اليومِ، فبقاءُ الاسلامِ مَدِينٌ لِلنّصرِ العظيمِ في هذه المعركةِ.

وقد كان لِنتائِجِها صَدَىً كبيرٌ في كُلٍّ مِنْ مكّةَ والمدينةِ:

فأَمّا في مكّةَ فقد وَصَلَتْ إليها فُلولُ المُنْهَزِمين فعَمَّها الحزنُ والبكاءُ، وكان بيتُ أبي سفيانَ بنِ حرب مِنْ أكبرِ بيوتِ قُرَيْشٍ مُصَاباً بِبَدْرٍ:

فقد قتِلَ أحدُ أبنائِهِ (حنظلة) وأسِرَ آخرُ (عمرو) وامرأتُهُ هِنْدٌ قتِلَ أبوها (عُتبةُ بنُ ربيعةَ) وأخوها (الوليدُ) وعمُّها (شيبةُ)، ولكنّ أبا سفيان تجلَّدَ أمامَ الكارثةِ وراح يطوفُ على أحياء قُرَيْشٍ:

ـــ يا معشرَ قُرَيْشٍ، لا تَبْكُوا على قَتْلاكم، ولا تَنُحْ عليهم نائحةٌ، ولا يَبْكِهِم شاعرٌ، وأظهِرُوا الجَلَدَ والعزاءَ، كيلا يشمتَ بكم محمدٌ وأصحابُهُ، ولعلكم تُدركون ثأرَكُمْ منهم، فَالطِّيبُ والنِّساءُ عليَّ حرامٌ، حتى أغزوَ مُحَمّداً!

وسيظلُ أبو سفيانَ يؤججُ في قلوبِ المشركينَ

أحقادَهم وعزائِمَهم على الانتقامِ والثّأرِ لِقَتْلاهُمْ عاماً كاملاً، حتّى يجمعوا جُموعَهُمْ ويخوضوا بقيادتِهِ معركتَهُمُ الكبرى الثانيةَ في أُحُد.

وَأمّا في المدينةِ فكانَ لِلنّصْرِ السّاحِقِ على قُرَيْشٍ صدىً مُختَلِفٌ، فالمسلمون عمَّتهم الفرحةُ، وازدادتْ ثِقَتُهُمْ بِقدرَتِهِم على حِمايةِ أنفسِهِم وسَحْقِ أعدائِهِم والدفاعِ عَنْ دِينِهِم ومُجْتمعِهِم الجديدِ؛ واليهودُ استبدَّ بهم الذعرُ من قوّةِ المسلمين وهزيمَتِهِم لِقُرَيْشٍ، وَسَيزدادُ مُنْذُ اليومِ تآمُرهم على المسلمين، وتحريضهم للمشركين عليهم؛ والمنافقون في المدينةِ ضَعُفَتْ شوكتُهُمْ، وأصابَهُمْ الخِزيُ وَهُمْ يَرَوْنَ الجيشَ الاسلاميَّ العائدَ مِنْ بَدْرٍ، مُثْقَلاً بِالغَنَائِمِ الكثيرةِ، (مائة وخمسون من الابل وعشرة من الخيلِ ومتاعٌ وثيابٌ وأسلحةٌ وفيرة) وقد خرجَتْ المدينةُ كلُّها

لِتَشْهَدَ صفوفَ الأسرى مقرونين في الحِبالِ، وعليهم الذِلَّةُ، يسوقُهُمْ عاملُ النبيِّ على أسرى بَدْرٍ، غُلامُه الحبشيُّ شُقرانُ، ويحرسهم من معه من المسلمين، وأدركَ كُلُّ مَنْ في المدينةِ حينذاك أنّ الرجلَ المهاجرَ المُسْتَضْعَفَ الذي وَفَدَ على يَثْرِبَ قَبْلَ قُرابةِ عامين يَقِفُ اليومَ على رأسِ دَوْلَةٍ ناشِئَةٍ، يزدادُ كلَّ يومٍ سُلطانُها و بأسُها، وقد هيأ له ولأَصْحابِهِ النصرُ في بَدْرٍ قوة ماديّةً، مِنْ أموالِ الغنائِمِ التي غنموها، ومنَ الأموالِ التي افتدى بها كثيرٌ مِنَ الأسرى أنفسَهُم، أَمّا القوةُ المعنويّةُ ـــ وهي الأكبرُ والأهَمُّ ـــ فقد ازدادَ المسلمون ثقةً بذاتِهِمُ الحربيةِ في تجربتهم القتالِيّةِ الكبيرةِ الأولى، وقد خاضوها دُونَ اتخاذِ الأهبةِ أو الاستعدادِ الكبيرِ لَهَا، كما ازدادُوا ثقة بأَنّ اللهَ ناصرُهُمْ، لِأنَّهُم على الحقِّ، ولِأنّ خصومَهُمُ المشركينَ على البَاطِلِ.

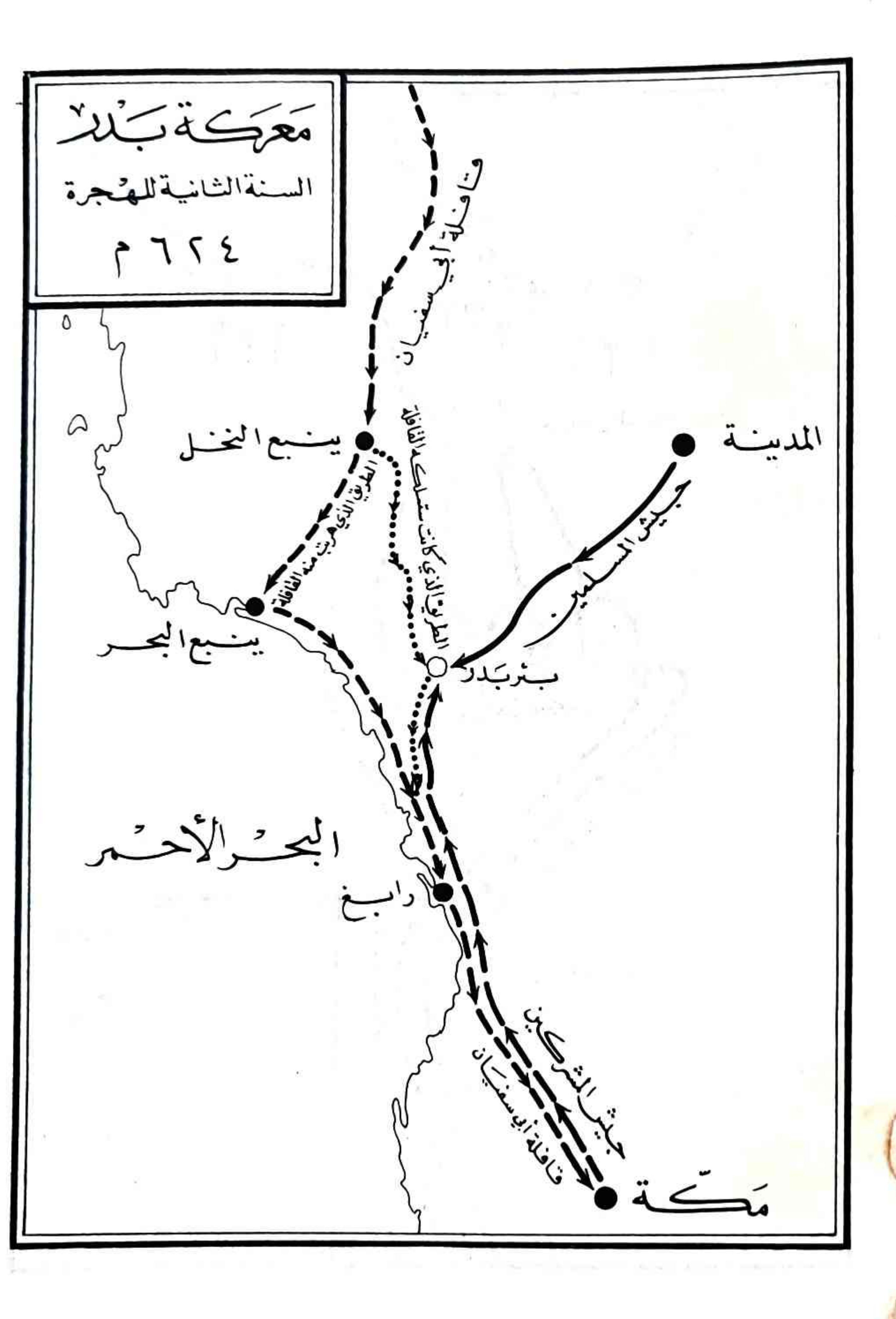
ومن هنا بَدَأَ المدُّ الإسلاميُّ ينطلقُ: دخلَ في الاسلامِ بَعْدَ النَّصْرِ في بَدْرٍ كثيرٌ مِنَ المشركين، وانكسرتْ شوكةُ اليهودِ والمنافقين، بعد القِصاصِ الحازمِ الذي أَنْزَلَهُ المسلمون بِمَنْ عدُّوه مِنَ الأسرى من (مُجرمي الحرب) وهم أفرادٌ عُرفوا بتعذيبِ المسلمين والتنكيلِ بِهِم في غيرِ انسانيَّةٍ ولا نَخْوَةٍ، وبعد اقتصاصِ المسلمين مِنْ بعضِ اليهودِ المُجاهِرينَ بالعداوةِ والقائمين بالدعايةِ المناوِئةِ والمحرِّضةِ والكائدةِ للمسلمين (من أمثال أبي عفك وكعب بن الأشرف)، وعندما حاولَ يهودُ بني قَيْنُقَاعِ في المدينة النيلَ مِنَ أَحَدَ المسلمين وقتلوه ولمْ يَلْتَزِمُوا بالعهودِ التي كانوا عَقَدُوْهَا مَعَ النبيِّ، حاصرَهُم المسلمون في دورِهم حتّى نزلوا على حُكمهم، فَأَجْلوهم عَنِ المدينةِ، فخرجوا منها إلى

أذْرِعات وهي مدينةٌ في البلقاءِ، في أطرافِ الشّامِ، وبإجلاءِ اليهودِ عن المدينةِ حَقَّقَ المسلمون الوحدةَ السياسيَّةَ الأولى لمجتمعِهم ودولتِهِم، وَأَصْبحتْ يَثْرِبُ مدينةُ الرسولِ مؤهلةً لِلقيامِ بدورِهَا العظيم باعتبارِهَا العاصِمَةَ الاسلاميَّةَ الأولى التي ستنطلقُ منها جيوشُ الاسلامِ المظفرةُ، للقضاءِ على الوثنية والشِّرْكِ في الجزيرةِ العربيةِ، وتوحيدِ قبائلها، وصهرِها في أمَّةٍ عَربيةٍ اسلاميةٍ واحدةٍ، تَحْمِلُ إلى العالمِ رسالةَ التوحيدِ، وتُجاهد في سبيلِ اللهِ.

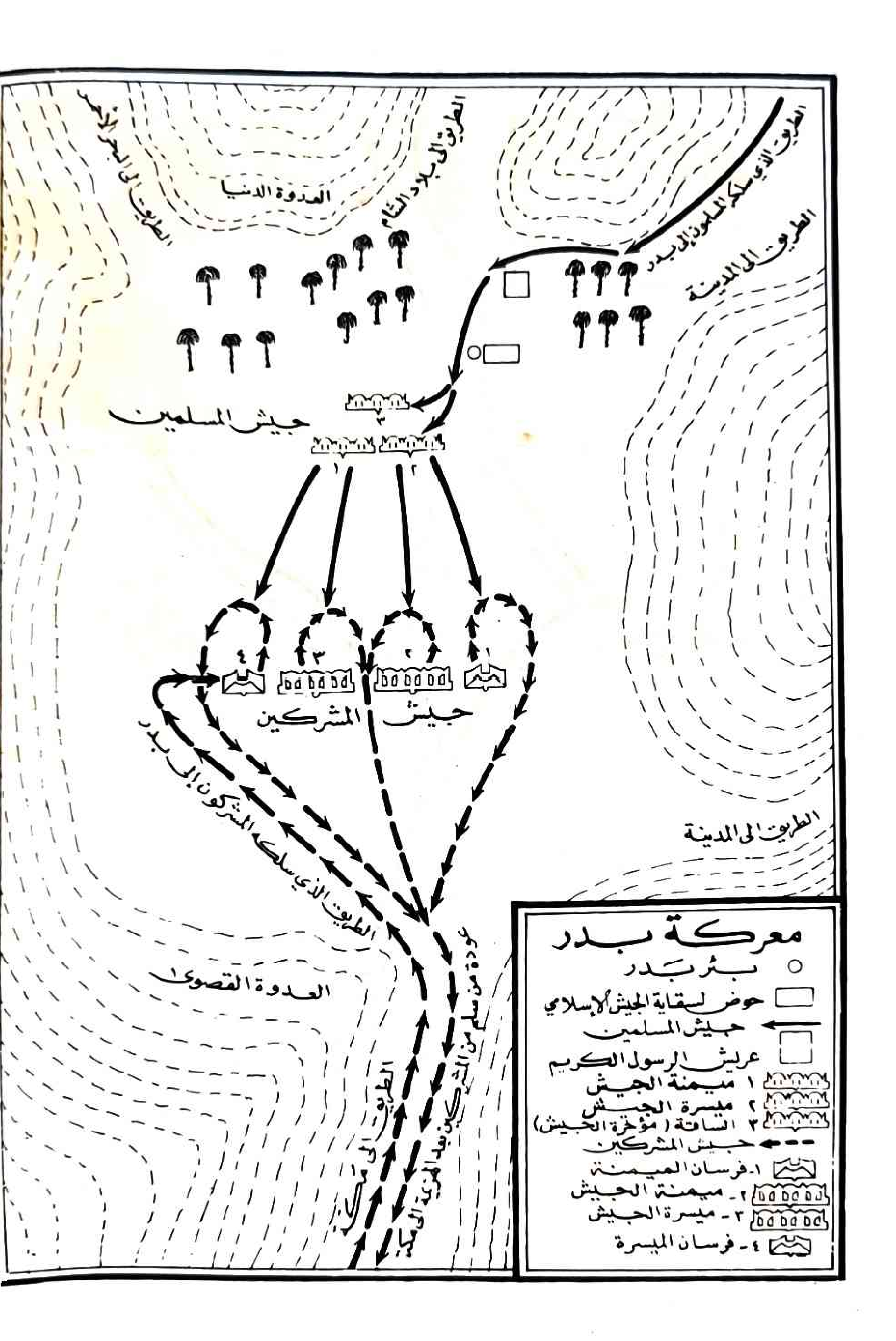
إنّ مُعجزةَ النَّصْرِ في بَدْرٍ هي البدايةُ الحقيقيةُ لِانطلاقةِ الاسلامِ لتحقيقِ أمجادِهِ وتأديةِ رسالتِهِ، ولهذا عُدَّ البدريّون مِنَ أصحابِ محمدٍ الطبقةَ الأولى في المجتمعِ الاسلاميِّ، وَبسواعدِهم في بَدْرٍ وَضَعُوْا الأساسَ الأوّلَ لِبناءِ صَرْحِ الإسلامِ، وأقاموا لِلعَربِ

أَوّلَ وَحْدَةٍ سياسيةٍ وقوميةٍ ودينيةٍ في تاريخِهِم الطويلِ.

المحتوى



معركة بدر
السنة الثانية للهجرة
٦٢٤ م
قافلة أبي سفيان
ينبع النخل
المدينة
جيش المسلمين
الطريق الذي هربت منه القافلة
الطريق الذي كانت ستسلكه القافلة
ينبع البحر
بئر بدر
البحر الأحمر
رابغ
جيش المشركين
قافلة أبي سفيان
مكة



الطريق الى البحر الأحمر
الطريق الى بلاد الشام
العدوة الدنيا
الطريق الذي سلكه المسلمون الى بدر
الطريق الى المدينة
جيش المسلمين
جيش المشركين
الطريق الذي سلكه المشركون الى بدر
الطريق الى المدينة
العدوة القصوى
عودة من سلم من المشركين بعد الهزيمة الى مكة
الطريق الى مكة
معركة بدر
بئر بدر
حوض لسقاية الجيش الإسلامي
جيش المسلمين
عريش الرسول الكريم
١ ميمنة الجيش
٢ ميسرة الجيش
٣ الساقة (مؤخرة الجيش)
جيش المشركين
١ـ فرسان الميمنة
٢ ـ ميمنة الجيش
٣ ـ ميسرة الجيش
٤ ـ فرسان الميسرة

معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

معركة بدر الكبرى

٢ هـ / ٦٢٤ م

الدكتور صالح الأشتر

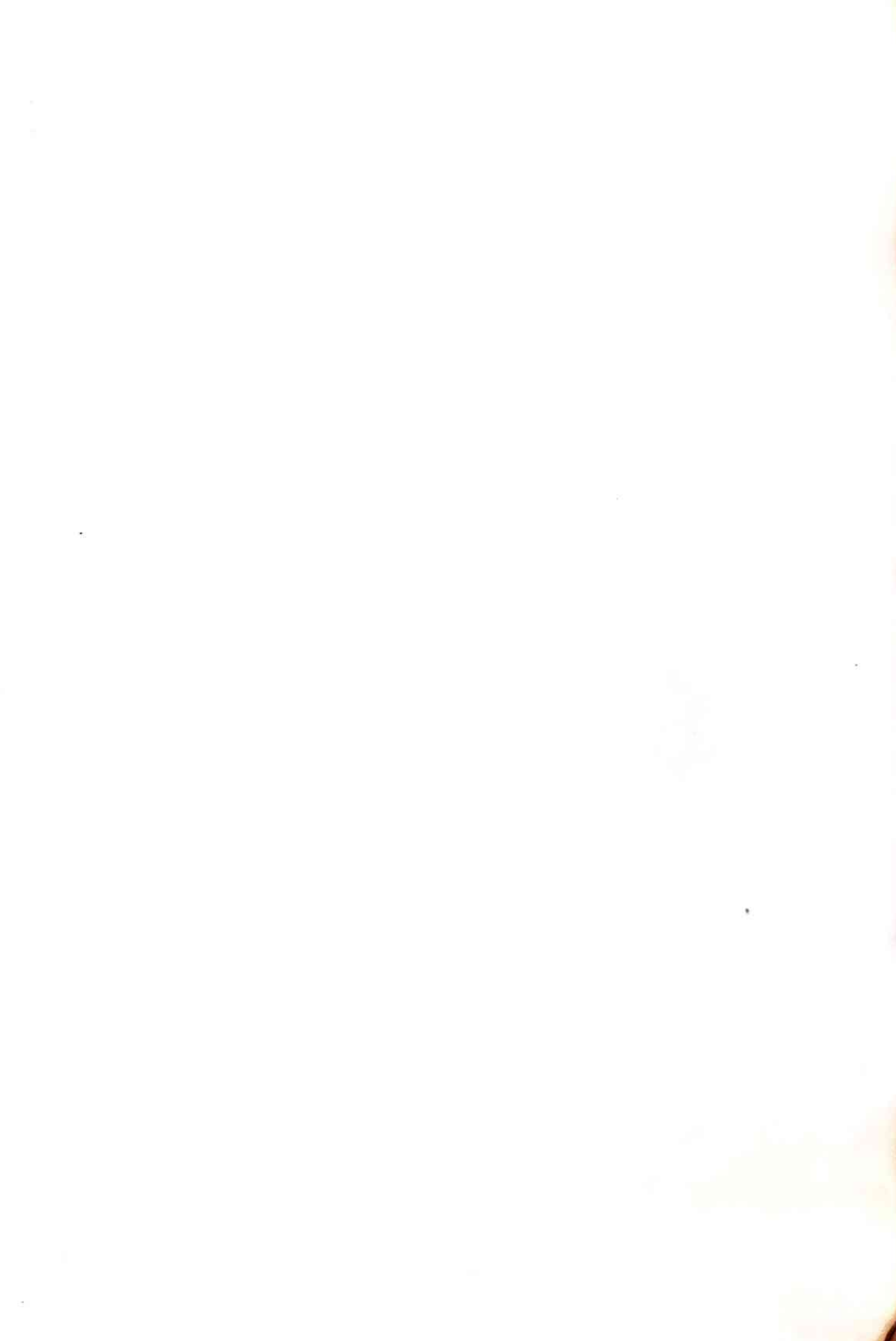
دار الشرق العربي
بيروت - شارع سورية - بناية درويش

سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات ، من الجاهلية الى القرن الهجري الثالث .

١ - معركة ذي قار
٢ - معركة بدر الكبرى
٣ - معركة أحد
٤ - معركة اليمامة
٥ - معركة اليرموك
٦ - معركة القادسية
٧ - معركة نهاوند
٨ - معركة وادي لكة
٩ - معركة بلاط الشهداء
١٠ - معركة عمورية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والاستاذ محمد الانطاكي
واشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله



معارك حربية حاسمة

عربية وإسلامية

شارك في تحرير هذه السلسلة
الدكتور صالح الأشتر
والأستاذ محمد الانطاكي
واشرف على إصدارها
الدكتور صالح الأشتر



سلسلة في عشر حلقات تعرض صوراً تحليلية مجيدة من تاريخنا الحافل بالبطولات من الجاهلية الى القرن الهجري الثالث .

١ - معركة ذي قار ٢ - معركة بدر الكبرى ٣ - معركة أحد ٤ - معركة اليمامة
٥ - معركة اليرموك ٦ - معركة القادسية ٧ - معركة نهاوند ٨ - معركة وادي لكة
٩ - معركة بلاط الشهداء ١٠ - معركة عمورية

سلسلة تعلمنا أن النصر لا يحققه الا القادرون على الموت في سبيله

المؤسسة العلمية للوسائل التعليمية
حلب - المسلمية - المنطقة الحرة -